بسم الله الرحمن الرحيم

رؤى جديدة
فى الاستعارة غير المفيدة

د. أحمد هنداوى عبد الغفار هلال
مدرس بقسم البلاغة والنقد

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(وبعـــد)

فالاستعارة ضرب من المجاز اللغوى علاقته المشابهة بين المستعار له ، والمستعار منه ، وقد ذكرها الشيخ عبد القاهر الجرجاني في مطالع كتابه (أسرار البلاغة) وقدمها على غيرها من المسائل البيانية ، فيما يبدو أنه اهتمام بأمرها ، وتنويه بفضلها ، وقد قسمها تقسيما أوليا إلى مفيدة وغير مفيدة ، ومدح الاستعارة المفيدة وأشاد بها ، ورفع من قدرها ، فأشار إلى أنها أوسع ميدانا ، وأبعد مدى ، وأعجب حسنا ، وأعمق غورا ، وأرحب صدرا فقال : « . . . ومن الفضيلة الجامعة فيها – أى في الاستعارة المفيدة – أنها تبرز هذا البيان أبدا في صورة مستجدة ، تزيد قدره نبلا ، وتوجب له بعد الفضل فضلًا ، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد حتى تراها مكررة في مواضع ، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد ، وشرف منفرد ، وفضيلة مرموقة ، وخلابة موموقة ، ومن خصائصها التى تذكر بها ،

وهي عنوان مناقبها أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر ، وتجنى من الغصن الواحد أنواعا من الثمر »[١] ثم يقول : « . . . فإنك لترى بها الجماد حيا ناطقا ، والأعجم فصيحا ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعاني الخفية بادية جلية . . »[٢] .

أما الاستعارة غير المفيدة ، فقد عابها ، وانتقص منها ، وحط من شأنها ، لأنها ضيقة الأفق ، ضحلة العمق ، شحيحة العطاء ، قليلة النماء فقال في شأنها : « . . وأنا أبدأ بذكر غير المفيد ، فإنه قصير الباع ، قليل الاتساع . . . وموضع هذا الذي لا يفيد نقله حيث يكون اختصاص الاسم بما وضع له من طريق أريد به التوسع في أوضاع اللغة ، والتنوق[٣] في مراعاة دقائق في المعاني المدلول عليها كوضعهم للعضو الواحد أسامى كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان ، نحو وضع الشفة للإنسان والمشفر للبعير ، والجحفلة للفرس ، وماشاكل ذلك من فروق . . »[٤] وهذه الاستعارة التى سماها الشيخ عبد القاهر غير مفيدة فى كلامه الآنف الذكر تسمى أيضًا استعارة غير لفظية ، لأنها تعتمد على نقل لفظ مكان لفظ ، دون التفات إلى معناه ، فهي استعارة مفيدة ، أو استعارة لفظية يقابلها الاستعارة المفيدة أو المعنوية ، وقد ألمع الشيخ عبد القاهر إلى كلا الاسمين اللفظية والمعنوية في قوله :

---

(١) أسرار البلاغة /٣٠ تحقيق الشيخ محمد رشيد رضا الطبعة السادسة ١٩٥٩م مكتبة القاهرة . وهى المقصودة عند الإطلاق

(٢) المرجع نفسه والموضع .

(٣) التنوق فى الأمر - التأنق فيه .

ينظر لسان العرب ٦ /٤٥٨١ (نوق) طبعة دار المعارف .

(٤) أسرار البلاغة /٢٠ - ٢١

« . . فاعلم أنك قد تجد الشيء يخلط بالضرب الأول الذي هو استعارة من طريق اللفظ ، ويعد في قبيله ، وهو إذا حققت ناظر إلى الضرب الآخر فهو مستعار من جهة المعنى ، وجار في سبيله . . . »[1] .

وهذا العمل المتواضع الماثل بين أيدينا سيتناول - بمشيئة الله وعونه - تلك الاستعارة اللفظية ، أو غير المفيدة ، ويلقى بعض الأضواء عليها من خلال نظرة بعض العلماء إليها ، وخاصة الشيخ عبد القاهر الذي صعد النظر فيها وصوبه ، وبين متى تكون غير مفيدة ، ومتى يمكن اعتبارها مفيدة ، ومثل لها بأمثلة عديدة لا زالت تسطر في كتب البلاغة ، ويتداولها البلاغيون إلى الوقت الحاضر :

وقد خطر ببالى أن أضيف إليها نماذج جديدة ، وأمثلة ليست معهودة فيما اشتهر من كتب البلاغيين ، فشغفت بهذا الأمر ، وأغرمت به فترة من الزمن ، واستخرت الله تعالى أن يهدينى سواء السبيل ، فألقى الله فى روعى أن أتجه صوب كتاب (لسان العرب لابن منظور) فإن فيه ما يحقق تلك الغاية ، وفعلا أعاننى الله عز وجل على قراءة هذا السفر الكبير[2] والمعجم الضخم الذى يعتبر من أكبر المعاجم العربية ، إن لم يكن أكبرها على الإطلاق ، واستخرجت منه مادة علمية بلاغية ، منها ما يتعلق بالاستعارة غير المفيدة ، ومنها ما يتعلق بغيرها ، فيها كثير من الشواهد البلاغية لم تألفها كتب البلاغة ، أو تخطها أقلام البلاغيين المشهورين .

فالله نسأل أن يمدنا بعونه ، وتوفيقه ، وأن يهيء لنا من أمرنا رشدا .

* * *

---

(١) المرجع نفسه /٢٤

(٢) اعتمدت على طبعة دار المعارف بالقاهرة .

الاستعارة غير المفيدة عند قدامة بن جعفر

كان المنطق الذي بدأت منه هذه الدراسة حول الاستعارة غير المفيدة ، أو الاستعارة اللفظية هو معنى المعاظلة في ثناء الخليفة عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – على الشاعر الجاهلى زهير بن أبي سلمى ، وامتداحه له بأنه كان لا يعاظل في الكلام ، فقد روى « عبد الله بن عباس – رضى الله عنهما – أنه قال قال لى عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – أنشدنى لأشعر شعرائكم ، قلت من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال زهير ، قلت و لم كان كذلك ؟ قال كان لا يعاظل بين الكلام ، ولا يتتبع حوشيه ، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه[1] .

وهذه شهادة عظيمة من الفاروق – رضى الله عنه – (لزهير) استحقها عن جدارة واقتدار ؛ لأنه كان لا يغرم بوحشى الكلام ، وغريبه ، ولا يولع بتعقيد شعره ، ولا يمدح رجلا إلا بما فيه .

وقد اعتبر « قدامة بن جعفر » المعاظلة التى تنزه عنها شعر (زهير) عيبا من عيوب اللفظ ، وفسرها بأنها فاحش الاستعارة فقال :

« ... وسألت « أحمد بن يحيى » عن المعاظلة فقال مداخلة الشيء في الشيء ، يقال تعاظلت الجرادتان ، وعاظل الرجل المرأة إذا ركب أحدهما الآخر ، وإذا كان الأمر كذلك ، فمن المحال أن تنكر مداخله بعض الكلام فيما يشبهه من وجه ، أو فيما كان من جنسه ، وما هو غير لائق به ، وما

---

(١) العمدة ، لابن رشيق ١ /٩٨ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الخامسة ١٤٠١هـ

أعرف ذلك إلا فاحش الاستعارة . . . »[1] .

ويضيف « قدامة » ممثلا لفاحش الاستعارة قائلا : « مثل قول أوس[2] .

وذاتُ هِدْمٍ عارٍ نواشِرُهــا   تُصْمِتُ بالماء تَوْلَبًا جَدِعًـا[3]

فسمى الصبى تولبا ، وهو ولد الحمار ، ومثل قول الآخر :

فما رقد الولدان حتى رأيته   على البكر يمريه بساق وحافر[4]

فسمى رجل[5] الإنسان حافرا ؛ فإن ما جرى هذا المجرى من الاستعارة قبيح لا عذر فيه »[6] .

وهكذا رفض « قدامة » أن يكون معنى المعاظلة مداخلة الشيء فى الشيء أو مداخلة الكلام فيما يشبهه ، أو فيما كان من جنسه ، كما وضحها له « أحمد بن يحيى » ولم يعره أذنا صاغية ، أو يحفل بكلامه ، وارتضى أن يكون معناها فاحش الاستعارة ، أو قبيحها الذى لا عذر فيه ، ومثل لها باستعارة بعض الشعراء ولد الحمار للصبى من بنى الإنسان ، واستعارة شاعر

---

(١) نقد الشعر ، لقدامة بن جعفر /١٧٥ تحقيق وتعليق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ، الطبعة الأولى ١٩٧٩م مكتبة الكليات الأزهرية .

(٢) يقصد أوس بن حجر الشاعر الجاهلى .

(٣) الهِدْمُ – الثوب الخلق المرقع . ينظر لسان العرب ٦ /٤٦٣٦ (هدم) والنواشر – عصب الذراع من داخل وخارج .

ينظر لسان العرب ٦ /٤٤٢٤ (نشر)

(جَدِعًا) سيئ الغذاء لسان العرب ١ /٤٣٨ (تلب)

(٤) يمريه : يستخرج ما عنده من الجرى . ينظر لسان العرب ٥ /٤١٨٩ (مرا) .

(٥) الأدق أن يقال فسمى قدم الإنسان . . . فقد حكى صاحب لسان العرب عن بعض اللغويين أن الرجل من أصل الفخذ إلى القدم .

٣ /٥٩٧ (رجل)

(٦) نقد الشعر لقدامة /١٧٤ – ١٧٥

آخر حافر الدابة لقدم الإنسان ؛ لأن هذا إدخال لجنس فيما ليس من جنسه ، أو عضو فيما ليس من شكله ، ولا يليق به .

ومع أن هذا الرأى الذى أعجب به « قدامة » وضرب بما سواه عرض الحائط لم ينل القبول عند أهل العلم ، وحذاق الأدب والنقد إلا أنه ألقى ضوءا ، ولو خافتا على الاستعارة غير المفيدة ، أو كما سماها هو فاحش الاستعارة .

الاستعارة غير المفيدة عند الآمدى

رفض الآمدى ، وجمهور النقاد رأى « قدامة » في معنى المعاظلة ، وإن كانوا قد وافقوة على أن مثل هذه الاستعارة التى اشار إليها قبيحة ، أو رديئة ، أو نحو ذلك من الأوصاف ، فقد أورد الآمدى ، وهو بصدد بيان تعقيد شعر أبى تمام ، وسوء نظمه ووحشى ألفاظه - كما قال - ما روى عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فى شعر (زهير) وقد ساق كلام (عمر) برواية تختلف عن الرواية التى قدمتها من قبل في كلمات قليلة ، لا تخرجها عن مضمونها ، فقد جاء في « الموازنة » ما روى عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - في (زهير بن أبى سلمى) لما قال فيه كان لا يعاظل في الكلام ولا يتتبع حوشيه ، ولا يمدح رجلا إلا بما فى الرجال »[1] ثم بين معنى المعاظلة عنده ، وعند أهل العلم قائلا :

« . . . وقد فسر أهل العلم هذا من قول (عمر) وذكروا أن معنى المعاظلة هو مداخلة الكلام بعضه في بعض ، وركوب بعضه بعضا ، من قولك تعاظل الجراد ، وتعاظلت الكلاب ، ونحوهما مما يتعلق بعضه ببعض عند السفاد . . .إلا أبو الفرج « قدامة بن جعفر » فإنه ذكر ذلك فى كتابه

---

(١) الموازنة ، للآمدى /٢٥٨ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ١٩٤٤م .

المؤلف فى نقد الشعر ، ومثل له أمثلة ، فغلط في أمثلة المعاظلة غلطا قبيحا ، وقد ذكرت ذلك فى كتاب بينت فيه جميع ما وقفت عليه من سهوه وغلطه »[١] .

وفى الوقت نفسه وافق الآمدى « قدامة » على أن الأمثلة التى ذكرها لفاحش الاستعارة هى وما يماثلها استعارات في نهاية القبح فقال : « ... وأخذ على الآخر قوله :

فما رقد الوالدان حتى رأيته على البكر يمريه بساق وحافر[٢]

فسمى رجل الإنسان حافرا ، وهذه استعارات فى نهاية القبح ، وكذلك قول الآخر .

قد أفنى أنامِلَهُ عَضُّهُ فأضحى يَعَضُّ على الوظيفا[٣]

فجعل له وظيفا مكان الرجل ، وكذلك قول الآخر :

سأمنعها أو سوف أجعل أمرها إلى ملك أظلافه لم تشقق[٤]

---

(١) هو كتاب (تبيين غلط قدامة فى كتاب نقد الشعر) كما ذكر محقق كتاب (نقد الشعر) ص٩ وينظر الموازنة /٢٥٩

(٢) أعتذر عن تكرار بعض الشواهد الشعرية ؛ لأن طبيعة البحث تستدعى ذلك ، لمعرفة موقف كل عالم من هذه الاستعارة .

(٣) فى لسان العرب : الوظيف لكل ذى أربع ما فوق الرسغ إلى مفصل الساق . . . وجمعه أوظفة ، ووظف ، الجوهرى ، الوظيف مستدق الذراع والساق من الخيل ، والإبل ونحوهما . . . قال - أى الجوهرى - وظيف البعير خفه ، وهو له كالحافر للفرس . ٦ /٤٨٦٩ (وظف)

فما ذكره الآمدى من أن الوظيف يقابل القدم على رأى بعض اللغويين .

(٤) هذا البيت للشاعر عقفان بن قيس ، وهو شاعر جاهلى ، جاء فى هامش كتاب (أسرار البلاغة) تحقيق هـ ريتر فى مناسبة هذا البيت أن النعمان ابن المنذر استعمل الغلاق بن عمرو الرياحى على هجائن من يلى أرضه من العرب ، وكان لعقفان هذا هجائن ، فأخفاها فطلبها الغلاق فعمد عقفان بإبله حتى أتى النعمان فأجاره ولم يأخذ منها شيئا فقال قصيده منها هذا البيت ينظر (أسرار البلاغة) / ٣٧ تحقيق هـريتر ، طبعة استانبول ، وزارة المعارف ١٩٥٤م .

وقول الحطيئة :

قروا جارك العيمان لما جفوته وقلَّصَ عن برد الشراب مشَافِرُه[١]

وتفسير الآمدى للمعاظلة اتباعا لرأى أهل العلم هو الموافق لمعناها فى اللغة ، ويؤكد ذلك ما ذكره صاحب لسان العرب حين قال :

« العظال الملازمة فى السفاد من الكلاب ، والسباع ، وغير ذلك مما يتلازم في السفاد ، وينشب ، وعاظلت الكلاب معاظلة ، وعظالا ، وتعاظلت لزم بعضها بعضا فى السفاد وأنشد :

كلابٌ تعاظلُ سود الفقا ح لم تَحْم شَيئا ولم تَصْطَدِ[٢]

وقد عرج صاحب لسان العرب على امتداح عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – (لزهير) وشعره ، ثم أتبعه بقوله « . . . أى لا يعقده ، ولا يوالى بعضه فوق بعض[٣] » فيما يبدو أنه تفسير للمعاظلة .

وهنا قد يبدو تساؤل مؤداه إذا كانت المعاظلة ليست فاحش الاستعارة ، كما ذهب إلى ذلك « قدامة » فما معناها الصحيح ؟ والجواب عن هذا التساؤل قد تبدى وظهر فى أثناء تناول صاحب اللسان لمعناها ، وأنها تعنى

---

(١) العيمان – شديد الشهوة لشرب اللبن

ينظر لسان العرب ٤ /٣١٩٥ (عيم)

وقلصت شفته وتقلصت : انضمت ، وانزوت ، ونقصت

ينظر لسان العرب ٥ /٣٧٢١ (قلص)

والبيت من قصيدة يهجو بهاالزبرقان وبعده :

سناما ومحضا أنبتا اللحم فاكتست عظام امرئ ما كان يشبع طائره

هم لاحموني بعد جهد وفاقة كما لاحم العظم الكسير جبائره

ديوانه /٢٥ دار صادر بيروت ١٩٨١م

(٢) الفقاح جمع فَقْحَة ، وهى حلقة الدبر . لسان العرب ٥ /٣٤٤٣ (فقح)

(٣) لسان العرب ٤ /٣٠٠٤ (عظل)

تعقيد الكلام ، وتداخل بعضه فى بعض ، وقد عالجها الآمدى ايضًا ، وجلى مضمونها وهو يرد على « قدامة » ما قاله فيها ، وذكر أنها « شدة تعليق الشاعر ألفاظ البيت بعضها ببعض ، وأن يداخل لفظة من أجل لفظة تشبهها ، أو تجانسها ، وإن اختل المعنى بعض الاختلال »[1] .

وقد مثل لها بأمثلة كثيرة من شعر أبى تمام منها قوله :

خان الصفاء أخ خان الزمان أخا عنه فلم يتخون جسْمَهُ الكمدُ

وعقب على هذا البيت بقوله : « . . فانظر إلى أكثر ألفاظ هذا البيت ، وهى سبع كلمات آخرها قوله (عنه) ما أشد تشبث بعضها ببعض ، وما أقبح ما اعتمده من إدخال ألفاظ فى البيت من أجل ما يشبهها وهو « خان » و« يتخون » ، وقوله « أخ » و« أخا » فإذا تأملت المعنى مع ما أفسده من اللفظ ، لم تجد لها حلاوة ، ولا فيه كبير فائدة ؛ لأنه يريد خان الصفاء أخ خان الزمان أخا من أجله إذا لم يتخون جسمه الكمد »[2] .

وبذلك يصبح واضحا أن المعاظلة عند المحققين من أهل العلم ، ونقدة الأدب شيء آخر غير الاستعارة المعيبة ، أو القبيحة ، أو ما شئنا من هذه الأوصاف ، وحينئذ يحق لنا أن نصرف النظر عن التمادى فى تناول المعاظلة ، والاستمرار فى مزيد من الحديث عنها ، ونولى وجهنا نحو الاستعارة غير المفيدة ، أو اللفظية التى هى الغرض المقصود ، والهدف المنشود من هذا العمل ، وقد خرجنا مما مضى فى أمر هذه الاستعارة بنتيجة مضمونها أن استعارة جنس لما لا يناسب جنسه ، أو عضو فى مكان لا يلائمه ، ويوافقه كانت هذه الاستعارة فاحشة ، أو فى نهاية القبح ، والدمامة كما قال كل من « قدامة » و« الآمدى » .

---

(١) الموازنة ، للآمدى / ٢٦٠

(٢) الموازنة ، للآمدى /٢٥٩

الاستعارة غير المفيدة عند أبى هلال العسكرى

عرض (أبو هلال) لبعض الاستعارات التى جاء ذكرها عند من سبقوه مثل قول الشاعر :

وذاتُ هِدْمٍ عارٍ نواشرهـا تُصْمِتُ بالماء تَوْلَبا جَدِعَا

وقول الآخر :

وما رقد الوالدان حتى رأيتـه على البكر يمريه بساق وحافر[1]

واعتبر استعارة التولب للصبى ، والحافر لقدم الإنسان فيها بُعْدٌ[2] .

وأعاد البيتين كليهما فى موضع آخر من كتابه ضمن أمثلة أخرى لهذا النوع من الاستعارة ، ووصفها بأنها استعارة رديئة »[3] .

ولكنه أضاف إضافة جديدة ، عندما ذكر عقب هذه الاستعارات أنه « . . . إذا أريد بذلك - يقصد المذكور من الاستعارات - الذم والهجاء ، كان أقرب إلى الصواب »[4] .

وهذه الإضافة على جانب كبير من الأهمية تجعلها محسوبة فى عداد الاستعارات

---

(١) صدّر (أبو هلال) هذا البيت هنا بالواو (وما) ص١٨١ ، ولكنه صدره فى موضع آخر بالفاء (فما)]٢٣٢ ، والبيت فى (أسرار البلاغة) أوله فاء (فما) ص٢٥

وهو فى لسان العرب مبدوء بالفاء (فما) ٢ /٩٢٥ (حفر)

وهذا يدل على أن الصواب ابتداؤه بالفاء ، ولعل ابتداءه بالواو سهو ، أو خطأ من النساخ .

(٢) كتاب الصناعتين /١٨١ تحقيق د مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط أولى ١٩٨١م

(٣) المرجع نفسه /٣٣٢

(٤) المرجع نفسه والموضع .

المفيدة ؛ لأنها إذا كانت للذم والهجاء ، وليست مجرد وضع لفظ مكان لفظ ، كانت قائمة على التشبيه ، ولا يبعد أن يكون الشيخ عبد القاهر الجرجانى قد استلهم تلك اللمحة الدالة عندما حكم - كما سيجىء بعد - إن شاء الله - بأن مثل هذه الاستعارات التى تبدو فى بادىء النظر غير مفيدة - تصير مفيدة ، إذا أريد بها الذم والنقص »[1] .

وقد تناول (أبو هلال) قول الشاعر :

سأمنعها أو سوف أجعل أمرها إلى ملك أظلافه لم تشقق

وجعله قبيحا لا شك فى قباحته[2] .

الاستعارة غير المفيدة عند الشيخ عبد القاهر الجرجانى

رأينا كيف كانت نظرة البلاغيين ، والنقاد قبل الشيخ عبد القاهر إلى الاستعارة غير المفيدة ، أو الاستعارة اللفظية ، فهى عندهم لا تعدو أن تكون استعارة فاحشة ، أو قبيحة ، أو رديئة ، أو فى نهاية القبح ، وكلها صفات مقتصنبة عابرة ، وأحكام فردية متناثرة .

وقد حاول (أبو هلال) أن يحدد مدلولها ، ويبرز معالمها عندما قال - كما ذكرت آنفا - « إذا أريد بذلك الذم والهجاء ، كانت أقرب إلى الصواب » فهى عندما يقصد منها الذم والهجاء ، تكون أقرب إلى الصواب ، لكنها لم تصل إليه ، أو تدخل حيزه ، وحسبه أنه خطا فى سبيل اعتبارها مفيدة

---

(١) ينظر أسرار البلاغة / ٢٤ -٢٥

(٣) قباحته : من مصادر الفعل (قبح)

ينظر لسان العرب ٥ /٣٥٠٨ (قبح)

وسيجئ بعد - إن شاء الله تعالى - أن الشيخ عبد القاهر جعل استعارة الأظلاف مكان الأقدام فى هذا البيت نفسه استعارة مفيدة .

خطوات إلى الإمام (ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه) .

وقد تناول الشيخ عبد القاهر ، بعد ذلك هذه الاستعارة ، فجعل منها موضوعا واضح المعالم ، بين القسمات ، فهو فى مبلغ علمى – أول من سماها غير مفيدة ، وجعلها قسيمة للاستعارة المفيدة ، ومقابلة لها حين قال : « إنها – أى الاستعارة عموما – تنقسم قسمين أحدهما ألا يكون لنقله – أى اللفظ – فائدة والثانى أن يكون له فائدة . . . »[1] وقد وصف غير المفيدة بأنها قصيرة الباع ، قليلة الاتساع ، ومدلولها – كما يفهم من كلامه أن تستعار أسماء أعضاء الناس ، أو الحيوانات بعضها مكان بعض ...[2] .

« .. فإذا استعمل الشاعر[3] شيئا منها فى غير الجنس الذى وضع له ، فقد استعاره منه ، ونقله عن أصله ، وجاز به موضعه كقول العجاج :

. . .وفاحما ومرسنا مسرجا[4]

يعنى أنفا برق كالسراج ، والمرسن فى الأصل للحيوان ؛ لأنه لمواضع الذى يقع عليه الرسن »[5] .

وإذا كان الشيخ عبد القاهر قد وصف هذه الاستعارة بأنها قصيرة الباع قليلة الاتساع ، فإن ذلك يعنى أن فيها فائدة مّا ، وليست عديمة الجدوى

---

(١) أسرار البلاغة / ٢٠

(٢) سبق نقل بعض كلامه فى صدر هذا البحث ، وينظر أسرار البلاغة ٢٠ /٢١

(٣) كلمة الشاعر ليست مقصودة لذاتها ؛ لأنه مثّل لها من غير الشعر ، ولعله قالها ؛ لأن المثال الذى يليها مباشرة من الشعر

(٤) هذا عجز بيت وصدره :

ومقلة وحاجبا مزججاينظر بغية الإيضاح ، للشيخ عبد المتعال الصعيدى ١ /١٤ المطبعة النموذجية .

(٥) أسرار البلاغة ٢٠ –٢١

أو مطموسة الأثر ، وقد تتبعت كلامه فى أوائل كتابه (أسرار البلاغة) وأواخره ، حول هذه الاستعارة فوجدت موقفه منها لم يكن ثابتا على رؤية معينة ، أو نظرة واحدة ، بل تعددت رؤاه ، واختلفت نظراته ، وقد تمثلت هذه النظرات فى عدة صور :

إحداها - أنها عديمة الفائدة والنفع ؛ لأنها تعتمد على مجرد نقل لفظ مكان لفظ ، فمثلا - إذا استعملت الشفة ، وهى موضوعة للإنسان مكان جحفلة الفرس كما فى قول الشاعر :

فتنا جلوسا لدى مهرنا ننزع من شفتيه الصُّفارا[1]

فهذه الاستعارة لا تفيد شيئا ؛ لأنه لا فرق من جهة المعنى بين قوله من شفتيه ، وقوله من جحفلتيه . . . بل الاستعارة ههنا بأن تنقصك شيئا من الفائدة أشبه ، وذلك أن الاسم فى هذا النحو إذا نفيت عن نفسك دخول الاشتراك عليه بالاستعارة ، دل ذكره على العضو ، وما هو منه ، فإذا قلت لشفة ، دلت على الإنسان أعنى أنها تدل على أنك قصدت هذا العضو من الإنسان دون غيره ، فإذا توهمت جرى الاستعارة فى الاسم ، زالت عنه هذه الدلالة بانقلاب اختصاصها إلى الاشتراك . . . »[2] .

فهى ليست غير مفيدة فحسب ، بل إنها تنقص الفائدة ؛ لأن اسم العضو إذا استعمل فيما وضع له ، أفاد الدلالة على العضو ، وصاحبه ، أما إذا ستعير ، أفاد العضو وحده[3] .

ثانيتها - أنها يمكن أن تكون مفيدة ، وإن بدت لأول وهلة غير مفيدة ،

---

(١) الصُّفارُ : ما بقى فى أسنان الدابة من التبن والعلق للدواب كلها .
لسان العرب ٤ /٢٤٦١ (صفر)

(٢) أسرار البلاغة /٢١ - ٢٢

(٣) ينظر أسرار البلاغة ٢١ /٢٢

ذلك إذا كان القصد منها تشبيه المنقول له بالمنقول عنه مثل « قولهم إنه غليظ الجحافل ، وغليظ المشافر ، وذلك أنه كلام يصدر عنهم فى مواضع الذم ، فصار بمنزلة أن يقال كأن شفته فى الغلظ مشفر البعير ، وجحفلة الفرس ، وعلى ذلك قول الفرزدق :

فلو كنت صنبيا عرفت قرابتى ولكن زنجيا غليظ المشافر[1]

فهذا يتضمن معنى قولك ولكن زنجيا كأنه جمل لا يعرفنى ، ولا يهتدى ، لشرفى . . »[2] .

وهى حينئذ تصبح استعارة مفيدة ، ومعنوية ، لأنها بنيت على التشبيه ، ويتأتى هذا عندما يكون الغرض منها الذم ، والقدح ، وقد صرح الشيخ بهذا المعنى وهو بصدد بيان تلك الاستعارة ، وإلقاء الضوء عليها فقال : « ... فإذا كان من شروط هذه الاستعارة أن يؤتى بها فى موضع العيب ، والنقص ، فلا شك فى أنها معنوية »[3] .

وكأنه - رحمه الله - يريد أن يعطينا مصباحا منيرا ، ونبراسا هاديا ، يرشدنا ، ويدلنا على الاستعارة المفيدة ، وقد أشرت خلال الكلام عن تلك الاستعارة عند (أبى هلال العسكرى) إلى أن الشيخ ربما يكون قد أفاد هذه

---

(١) أورد الخطيب القزوينى بيت الفرزدق ، وهو يعرض كلام الشيخ عبد القاهر حول الاستعارة التى تكون مفيدة فى مواضع الذم برفع كلمة (زنجى) على أنه خبر لكن واسمها محذوف يدل على ذلك أنه قال عقب البيت (أى ولكنك زنجى كأنه جمل لا يهتدى لشرفى) فجعل ضمير الخطاب المحذوف اسم (لكن) خلافا لما ذكره الشيخ عبد القاهر الذى أورده بنصب (زنجيا) على أنه اسم (لكن) وخبرها محذوف ، وتقديره لا يعرف قرابتى . ينظر بغية الإيضاح ٣ /١٠٣

(٢) أسرار البلاغة /٢٥

(٣) المرجع نفسه /٢٧

الأمارة منه ، وإن كان أكثر حسما من صاحبه ؛ لأنه جعلها عندما يراد بها الذم والعيب مفيدة قولا واحدا ، وليست أقرب إلى الصواب فقط كما قال (أبو هلال) وهنا يبرز أمامنا تساؤل مؤداه أن هذه الاستعارة تصبح مفيدة ، معنوية ، عندما يقصد منها الذم ، أو الهجاء ، فهل تكون مفيدة أيضا عندما يراد بها المدح والثناء ؟

والجواب أنها تكون مفيدة ، وإن كان الشيخ عبد القاهر لم يذكر ذلك صراحة ، إلا أنه أتى بمثال تعتبر فيه من قبيل المدح ، وجعلها فيه من جنس المفيد ، فقد قال : « . . . وأما قول الأعرابى كيف الطلا وأمه ؟ فمن جنس المفيد أيضا ؛ لأنه أشار إلى شيء من تشبيه المولود بولد الظبى ، ألا تراه قال ذاك بعد أن انصرف عن السخط الى الرضا ، وبعد أن سكن عنه فورة الجوع الذى دعاه إلى أن قال ما أصنع به آكله أم أشربه ؟ حتى قالت المرأة غرثان فاربكوا له »[1] .

واستعارة الطلا وأمه لمولود الإنسان وأمه من قبيل الاستعارة المفيدة كما أشار إلى ذلك الشيخ عبد القاهر ، وهى لا تدخل ضمن استعارة الأعضاء ،

---

(١) المرجع نفسه /٢٧ - ٢٨ وقد ذكر صاحب لسان العرب مورد هذا المثل فقال : « . . . وفى المثل غرثان فاربكوا له ، وأصل هذا المثل أن رجلا قدم من سفر ، وهو جائع ، وقد ولدت امرأته غلاما فبشر به ، فقال ما أصنع به آكله أم أشربه ؟ ففطنت له امرأته ، فقالت غرثان فاربكوا له ، فلما شبع قال كيف الطلا وأمه ؟ معنى المثل أنه غرثان جائع فسووا له طعاما يجأ غرثه . . . ٣ /١٥٧١ (ربك)

ومعنى يَهْجَأُ غَرَثُه : يسكن جوعه . نفسه ٦ /٤٦١٤ (هجأ)

والربيكة كما فى لسان العرب : التمر والسمن يعمل رخوا . ٣ /١٥٧١ (دبك) (ويضرب هذا المثل لمن قد ذهب همه ، وتفرغ لغيره) نقلا من أسرار البلاغة تحقيق هـ ريتر /٣٨

إنما هى استعارة ذات لذات ، ومفهوم ذلك أن الاستعارة بين الذوات تندرج تحت مسمى الاستعارة غير المفيدة ، إذا لم يقصد منها المدح ، أو الذم ، وإن كان الشيخ لم يذكرها صراحة ، لكن دلنا عليها تمثيله لها ، ولعله كان يلوح من بعد إلى استعارة الذوات وغيرها عندما قال :

« ... وماشاكل ذلك من فروق »[1] بعد أن عدد طرفا من أسماء الأعضاء التى تقع بينها الاستعارة اللفظية ، أو غير المفيدة ، وهذه العبارة الفضفاضة تدخل بين طياتها ما عدا الأعضاء من ذوات ، وغيرها ، وبناء على ذلك يمكننا أن نقول إن كل شيء يعلم من طريق اللغة أنه مختص بشيء معين ، ثم يستعار لشيء آخر يناظره ، يمكن أن يعد من هذه الاستعارة ، وتجرى عليه أحكامها ، وسيأتى قريبا - أن شاء الله تعالى - أن الزمخشرى أدخل ضمن الاستعارة اللفظية أشياء لم يذكرها الشيخ عبد القاهر قياسا - فيما يبدو - على ما ذكره .

هاتان الوجهتان أبداهما الشيخ فى أوائل (أسرار البلاغة) ولو أنه اكتفى بهما ، لا عتبر موقفه من هذه الاستعارة متلائما متناسقا ، فهى استعارة غير مفيدة إذا وضع اسم عضو أو نحوه مكان آخر أو نحوه فقط ، فإذا قصد منها التشبيه كانت مفيدة ، لكنه ذكر فى أواخر (أسرار البلاغة) وجهتين أخريين ذكر فى أولاهما ما يعتبر إلغاء لهذه الاستعارة ، ورجوعا عنها ، وذكر فى أخراهما ما يعتبر اعتدادا بها ، وإبقاء عليها ، فقال فى الأولى :

« واعلم أن الواجب كان ألا أعد وضع الشفة موضع الجحفلة ، والجحفلة فى مكان المشفر ، ونظائره التى قدمت ذكرها فى الاستعارة ، وأضن باسمها أن يقع عليه ، ولكن رأيتهم قد خلطوه بالاستعارات ، وعدوه معدها ،

---

(١) أسرار البلاغة /٢١

فكرهت التشدد فى الخلاف ، واعتددت به فى الجملة ، ونبهت على ضعف أمره بأن سميته استعارة غير مفيدة »[1] .

وهكذا نراه قد صدف عن تلك الاستعارة ، وقلب لها ظهر المجن ، وضن عليها أن تكون فى عداد الاستعارات ، لكنه وجد الذين سبقوه ، قد خلطوها بالاستعارات ، فسايرهم على ذلك ، وكره التشدد فى الخلاف ، وعدها منها فى الجملة ، ونبه على ذلك بجعلها استعارة غير مفيدة .
وربما كان مقصد الشيخ عبد القاهر من قوله (ولكنى رأيتهم قد خلطوه بالاستعارات وعدوه معدها) « قدامة » و« الآمدى » و« أبا هلال العسكرى » فقد أشاروا - كما أسلفت - إلى هذه الاستعارة إشارات سريعة ، وإن كانت نظراتهم إليها متفاوتة .

ولو أنه أنهى كلامه حول هذه الاستعارة عند هذا الحد الذى وصل إليه ، وبقى متمسكا باعتبارها لا تستحق أن تسلك فى زمرة الاستعارات ، لكان موقفه منها واضحا محددا ، واعتبر كلامه هنا إلغاء ، ونسخا لما قاله فى أوائل كتابه ، لكنه ذكر عقب كلامه السابق وجهه أخرى ، مضمونها أن هذه الاستعارة ليست خلوا من الفائدة ، ولا صفرا من المبالغة ، فإن فيها فائدة أقل من الاستعارة المفيدة ، وأكثر فى المبالغة ، وقوة العلاقة من المجاز المرسل ، فهى فى منزلة بين المنزلين - كما يقولون - يقول فى هذا اشأن :

« ووجه شبه هذا النحو الذى هو نقل الشفة إلى موضع الجحفلة بالاستعارة الحقيقية لأنك تنقل الاسم إلى مجانس له ، ألا ترى أن المراد بالشفة ، والجحفلة عضو واحد ، وإنما الفرق أن هذا من الفرس ، وذاك من الإنسان ، والمجانسة ، والمشابهة من واد واحد ، فأنت تقول أعير الشىء

---

(١) المرجع نفسه /٣٢٤ - ٣٢٥ تحقيق الشيخ محمد رشيد رضا

اسم الموضوع له هنالك أى فى الإنسان ههنا أى فى الفرس ؛ لأن أحدهما مثل صاحبه ، وشريكه فى جنسه ، كما أعرت الرجل اسم الأسد ؛ لأنه شاركه فى صفته الخاصة به ، وهى الشجاعة البليغة ، وليس لليد مع النعمة هذا الشبه ، إذ لا مجانسة بين الجارحة ، وبين النعمة ، وكذلك لا شبه ، ولا جنسية بين البعير ، ومتاع البيت ، وبين المزادة ، وبين البعير »[1] .

وهذا الكلام الأخير منه يعتبر اعتدادا بها ، وميلا إليها بعد أن بخل عليها باسم الاستعارة ، ومنحها الصدود ، فأضحى موقفه منها ليس بقاطع ، ولا حاسما ، وقد أكد هذا المعنى الدكتور محمد أبو موسى ، وهو يتناول علاقات المجاز المرسل ، فقد أشار إلى أن السكاكى جعل هذه الاستعارة مجازا مرسلا غير مفيد ، أو خاليا من الفائدة ثم قال :

« ... وقد جرى بعض الدارسين بعده على طريقته ، والذى أعزى بذلك هو موقف عبد القاهر الذى لم يتحدد تحديدا قاطعا فيها ؛ فقد ذكرها استعارة غير مفيدة ، ثم رجع عن هذه التسمية ، ثم ذكر ما يشبه تبرير ذكر هذا الضرب فى الاستعارة ، وأنه أولى بها من إطلاق اليد على النعمة . . . ثم يقرر أن الاستعارة يجب أن تقتصر على ما علاقته المشابهة »[2] .

وعلى الرغم من أنه كان مترددا فى قبولها أو رفضها - كما سبق بيانه - إلا أنه بذل جهدا كبيرا فى تحويل معظم شواهدها التى أوردها فى (أسرار البلاغة) إلى استعارة معنوية مفيدة ، إذا لوحظ فيها شبه بين المستعار منه ، والمستعار له ، وبذلك فتح لمن جاء بعده باب القياس على تلك الشواهد التى حولها من استعارة غير مفيدة عند النظرة الأولى التى توصف بأنها حمقاء إلى

---

(١) أسرار البلاغة /٣٢٥

(٢) التصوير البيانى /٣٤٦ الطبعة الثانية ١٩٨٠م مكتبة وهبة .

استعارة مفيدة عند إنعام النظر ، واستقصاء التأمل ، - فمثلا - قول الشاعر :

سأمنعها أو سوف أجعل أمرها إلى ملك أظلافه لم تشقـق

الذى جعله « قدامة » قبيحا لا شك فى قباحته[1] تناوله الشيخ عبد القاهر فجعل الاستعارة فيه قائمة على التشبيه ، وأبعد عن البيت ما توهم فيه من قبح ، فقد قال بعد أن أورده :

« ... هو فى حد التشبيه والاستعارة ؛ لأن المعنى على أن الأظلاف لمن تزيى بالملك عن مشابهة ، كأنه قال أجعل أمرها إلى ملك ، لا إلى عبد جاف متشقق الأظلاف ، ويدل على ذلك أن (أبا بكر بن دريد) قال فى أول الباب الذى وضعه للاستعارة : (يقولون للرجل إذا عابوه جاء حافيا متشقق الأظلاف) ثم أنشد البيت ، فإذا كان من شروط هذه الاستعارة أن يؤتى بها فى موضع العيب ، والنقص ، فلا شك فى أنها معنوية »[2] .

والذى أود أن أؤكده بعد استعراض موقفه من الاستعارة غير المفيدة أنه إذا لوحظ فيها التشبيه ، صارت مفيدة ، وخرجت عن دائرة اللفظية ، أو غير المفيدة ، ويتجلى ذلك عندما تساق فى مجال الذم ، والهجاء ، أو المدح ، والثناء .

الاستعارة غير المفيدة عند الزمخشرى

كان تفسير القرآن الكريم هو الميدان الرحب الفسيح الذى بث فيه صاحب الكشاف آراءه البلاغة ، التى أفادها ممن سبقوه ، وخاصة الشيخ

---

(١) ينظر كتاب الصناعتين /٣٣٢

(٢) أسرار البلاغة /٢٦ -٢٧

عبد القاهر الجرجانى ، فقد استوعب فكره البلاغى ، وطبقه على بلاغة القرآن الكريم ، وقد عرض لهذه الاستعارة فى مواضع من (كشافه) ، وترددت كلمات الشيخ عبد القاهر فى أثناء كلماته ، ويفهم من كلامه أنه يجوز وجودها فى القرآن فقد قال فى قوله تعالى : ﴿ **والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع .** ﴾[1] .

« ... فإن قلت لم سمى الزحف على البطن مشيا ؟ قلت على سبيل الاستعارة كما قالوا فى الأمر المستمر قد مشى هذا الأمر ، ويقال فلان لا يتمشى له أمر ، ونحوه استعارة الشفة مكان الجحفلة ، والمشفر مكان الشفة ، ونحو ذلك . . . »[2] فنجده قد نظر استعارة المشى للزحف ، باستعارة الشفة مكان الجحفلة ، والمشفر مكان الشفة ، وهذا يشعر أنها استعارة لفظية غير مفيدة ، كما ينطق بذلك ظاهر كلامه ؛ ولذلك رفض الدكتور محمد جلال الذهبى هذا التنظير منه وتساءل قائلا :

« . . . ماذا يعنى الزمخشرى بكلامه هذا ؟ أيقصد ما قصد الشيخ من قبل ، وهو أن الاستعارة إذا وقعت فى اسم يكون اختصاصه بما وضع له من طريق أريد به التوسع فى أوضاع اللغة كوضعهم للعضو الواحد أسامى كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان نحو وضع الشفة للإنسان ، والمشفر للبعير ، والجحفلة للفرس . . . »[3] .

وأضاف قائلا : « إذا كان الزمخشرى ؛ يقصد ذلك فإنا لا نوافقه ؛ لأنا

---

(١) النور /٤٥

(٢) الكشاف ٣ /٨٠ وأسرار البلاغة /٢٠ -٢١

(٣) الفخر الرازى والبلاغة العربية /٣٥٦ - ٣٥٧ رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية اللغة العربية بالقاهرة .

نلمح فى استعارة المشى للزحف معنى لا يتحقق بدون هذه الاستعارة ، فالحشرة التى بدون أرجل قد يبدو أنها تعانى السير ، ولا تقدر عليه ، فإذا قيل إنها تمشى أفاد أن الله سبحانه وتعالى قد منحها من القدرة على قطع المسافة ما منحه لصاحبة الأرجل ، على أن المشى غير الزحف ، وإن كانا مشتركين فى قطع المسافة ، أفبعد هذا ندعى أن هذه الاستعارة من قبيل إطلاق الشفة على الجحفلة ؟[١] .

واضح من كلام الدكتور الذهبى أن استعارة المشى للزحف فى الآية ليست استعارة لفظية ، وإنما هى استعارة مفيدة معنوية اعتمدت على التشبيه وليس المقصود منها وضع لفظ مكان لفظ فقط ، وهذا هو الذى يتلاءم مع بلاغة القرآن الكريم .

والزمخشرى - رحمه الله - وإن كان قد اكتفى فى آية النور بتنظير استعارة المشى للزحف باستعارة الشفة مكان الجحفلة ، فإنه قد صرح فى موضع آخر من تفسيره باسم الاستعارة اللفظية غير المفيدة ، فقد قال فى قوله تعالى : ﴿ **طلعها كأنه رءوس الشياطين** ﴾[٢] .

« والطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم إما استعارة لفظية ، أو معنوية »[٣] .

والذى يظهر من قوله (. . . إما استعارة لفظية أو معنوية) أنه يجعل احتمال وجودها فى الآية مساويا لاحتمال وجود الاستعارة المعنوية المفيدة .

ولو أننا نظرنا إلى الاستعارة فى تلك الآية بمنظور الشيخ عبد القاهر ،

---

(١) المرجع نفسه /٣٥٧

(٢) الصافات /٦٥

(٣) الكشاف ٣ /٣٠٢

لوجدنا – والله أعلم – أنها سيقت لذم شجرة الزقوم ، والتنفير منها ، وتبغيض الناس فيها ، وفى مكانها ، فهى دون ريب استعارة معنوية مفيدة ، مبنية على تشبيه طلع شجرة الزقوم برءوس الشياطين .

ونلحظ أن الزمخشرى قد وسع دائرة الاستعارة اللفظية ، التى يمكن أن تصير معنوية مفيدة بملاحظة التشبيه فيها ، وأدخل فيها أشياء لم ينص الشيخ عبد القاهر عليها صراحة مثل استعارة المشى للزحف ، واستعارة طلع النخلة لطلع شجرة الزقوم ، وهذا يعطينا دليلا على أنها يمكن أن تتسع لكلمات جديدة ، وآفاق عديدة .

الاستعارة غير المفيدة عند السكاكى

بعد هذه الرحلة التى صحبنا فيها الاستعارة غير المفيدة من عهد « قدامة » التى أماط اللثام عنها ، إلى عهد « السكاكى » الذى أسدل الستار عليها نجد أنها لم تحظ بدراسة متأنية عميقة ، ونظرة شاملة إلا على يد الشيخ عبد القاهر الذى شعب القول فيها ، وجعل منها موضوعا له خصائصه ، وعناصره ، بخلاف السكاكى الذى منيت على يديه بالجمود ، ولم تتقدم قيد شعره ، فقد استطاع أن يحولها إلى مجاز مرسل خال من الفائدة ، ولعله نظر إلى أن الشيخ عبد القاهر جعلها فى أحدى نظراته التى قدمتها استعارة خالية من الفائدة ، ولكنها على كل حال فيها نقل للكلمة من وضعها الأصلى إلى غيره ، فهى جديرة فى نظر « السكاكى » بأن تكون مجازا ؛ لما فيها من مجرد النقل ، فاعتبرها مجازا لغويا خاليا من الفائدة ، فقد قال :

« المجاز اللغوى الراجع إلى معنى الكلمة غير المفيد ، هو أن تكون الكلمة موضوعة لحقيقة من الحقائق مع قيد ، فتستعملها لتلك الحقيقة لا مع ذلك القيد ، بمعونة القرينة ، مثل أن تستعمل المرسن ، وأنه موضوع لمعنى الأنف مع قيد أن يكون أنف مرسون استعمال الآنف من غير زيادة قيد ، بمعونة

القرائن كقول العجاج :

. . . وفاحما ومرسنا مسرجا

يعنى آنفا يبرق كالسراج ، أو مثل المشفر ، وهو موضوع الشفة مع قيد أن تكون شفة بعير استعمال الشفة ، فتقول فلان غليظ المشفر فى ضمن قرينة دالة على أن المراد هو الشفة لا غير . . . »[١]

ثم أضاف السكاكى قائلا :

« . . . سمى هذا القبيل مجازا لتعدية عن مكانه الأصلى ، . . . ولغويا لاختصاصه بمكانه الأصلى بحكم الوضع ، وغير مفيد لقيامه مقام أحد المترادفين من نحو ليث ، وأسد ، وحبس ، ومنع عند المصير إلى المراد منه . . . »[٢] والمتأمل فى كلام « السكاكى » يجد أنه - رحمه الله - أخذ بعض كلمات الشيخ عبد القاهر حول الاستعارة غير المفيدة ، وتصرف فيها بمهارة فائقة ، ومنطق صائب ، فجعل اختصاص العضو بما وضع له فى الأصل قيدا ، فإذا أطلقت الكلمة من قيدها ، أفادت معنى العضو مطلقا ؛ ولذلك سمى هذا الصنيع الإطلاق بعد التقييد ، أو الإطلاق ، والتقييد[٣] وبذلك يكون « السكاكى » قد أسدل الستار على الاستعارة غير المفيدة ، فتحولت على يديه إلى مجاز مرسل خال من الفائدة[٤] فكأنها بدأت بالشيخ عبد القاهر وانتهت به .

وكان جهد اللاحقين من علماء البلاغة هو شرح كلام الشيخ

---

(١) المفتاح /١٧٢ مطبعة مصطفى البابى الحلبى ط الأولى ١٩٣٧م

(٢) المرجع السابق والموضع .

(٣) ينظر - مثلا - المطول ، لسعد الدين التفتازانى /٣٥٧ مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـ وبغية الإيضاح /٣ /١٠٣

(٤) وينظر المفتاح أيضا /١٩٦

عبد القاهر ، والسكاكى فى هذا المجاز ، فقد شرح كلامهما الخطيب القزوينى ، فذكر أن « السكاكى » قسم المجاز المرسل إلى خال عن الفائدة ، ومفيد ، وجعل الخالى عن الفائدة ما استعمل فى أعم مما هو موضوع له ، نحو قولنا فلان غليظ المشافر ، إذا قامت قرينة على أن المراد هو الشفة لا غير[١] .

وأضاف أن الشيخ عبد القاهر « جعل الخالى عن الفائدة ما استعمل فى شىء بقيد مع كونه موضوعا لذلك الشىء بقيد آخر من غير قصد التشبيه ، ومثله ببعض ما مثله الشيخ صاحب المفتاح ونحوه مصرحا بأن الشفة والآنف موضوعان للعضوين المخصوصين من الإنسان ، فإن قصد التشبيه ، كان اللفظ استعارة . . . »[٢] .

ونلحظ هنا أن الخطيب القزوينى نظرا ، لأنه كان معنيا فى الدرجة الأولى بتلخيص ما فى كتاب (مفتاح العلوم) من مباحث بلاغية قدم كلام « السكاكى » على كلام « عبد القاهر » فذكر أنه مثل لهذا المجاز ببعض ما مثل به صاحب المفتاح .

والواقع أن « السكاكى » هو الذى مثل ببعض ما مثّله الشيخ عبد القاهر ، فهو المتقدم ، والفضل للمتقدم - كما يقولون - .
وإذا كان « السكاكى » قد جعل هذا المجاز مرسلا غير مفيد ، واعتبره الشيخ عبد القاهر فى بعض نظراته صفرا من الفائدة ، فإن « العصام » - رحمه الله - حكم على الاستعارة غير المفيدة بأنها كذب صراح ، وإفك محض ، حين قال : « ولا يخفى أنك إذا قلت رأيت مشفر زيد ، وقصدت الاستعارة ، وليس مشفره غليظا ، فهو حكم كاذب »[٣] .

---

(١) بغية الإيضاح ٣ /١٠٢

(٢) المرجع نفسه والموضع .

(٣) الأطول /٢ /١١٨ - ١١٩ طبعة الآستانه ١٢٨٤هـ

وإنما كانت حينئذ محض الكذب ، لأن الاستعارة تتوقف على التشبيه بتداء ، فإذا لم يكن ثمة غلظ فى شفة « زيد » لم يكن ما يصلح لأن يكون وجه شبه[1] ويبدو مما قاله « العصام » أنه يرى أن تلك الاستعارة إذا لم يقصد منها التشبيه تكون خالية من الفائدة – أية فائدة – عديمة الجدوى ، لا تستحق أن تحتسب فى عداد الاستعارات ، أو تسلك فى سلكها كما ذكر الشيخ عبد القاهر الجرجانى فى إحدى نظراته إليها .

* * *

(١) ينظر حاشية الانبابى على الرسالة البيانية ، للصبان١ /١١٣ ، المطبعة الأميرية ، ط الأولى ١٣٥١هـ

الاستعارة بين أسماء الذوات

رأينا - فيما مضى - أن الشيخ عبد القاهر الجرجانى أجرى هذه الاستعارات بين أسماء الذوات ، مثل استعارة الطلا ، وهو ولد الظبى لولد الإنسان ، وأجراها كذلك بين أسماء الأعضاء ، مثل استعارة الشفة وهى موضوعة للإنسان للفرس ، وترك الباب مفتوحا أمام استعارة غيرهما عندما قال : « . . . وماشاكل ذلك من فروق »[1] .

ولذلك وجدنا الزمخشرى قد وسع دائرة هذه الاستعارة ، وأجراها بين أشياء لم يتطرق إليها الشيخ عبد القاهر صراحة ، مثل استعارة المشى للزحف ، واستعارة طلع النخلة لطلع شجرة الزقوم .

وقد عثرت فى كتاب (لسان العرب) على استعارات من هذا النوع ، بعضها ورد ذكره عند الشيخ عبد القاهر ، وبعضها لم يرد ذكره ، ومنها ما هو من قبيل استعارة اسم ذات لذات أخرى ، أو استعارة اسم عضو لعضو آخر ، وغير ذلك وقد قست النظير على النظير ، والمجهول على المعلوم ، وأرجو أن أكون قد وفقت فى فهم الاستعارات التى لم يأت لها ذكر فى كتب البلاغة المشهورة من قبل .

فمن استعارة اسم ذات لذات أخرى ، استعارة الأطلاء ، وهى أولاد الظباء لفسلان[2] النخل ، وهى استعارة بين حيوانات ، وأشجار ، المستعار

---

(١) أسرار البلاغة /٢١

(٢) الفسيلة : الصغيرة من النخل ، والجمع فسائل وفسيل ، والفسلان : جمع الجمع . لسان العرب ٥ / ٣٤١٤ (فسل)

منه أولاد الظباء أعنى الأطلاء ، والمستعار له ، صغار النخل ، جاء فى لسان العرب :

« . . . واستعار بعض الرجاز الأطلاء لفسيل النخل فقال :

دُهْمًا كأن الليل فى زُهائها
لا ترهبُ الذئبَ على أطْلائها[1]

يقول إن أولادها إنما هى فسيل ، فهى لا ترهب الذئب لذلك ؛ فإن الذئاب لا تأكل الفسيل »[2] واضح أن الراجز ينظر إلى هذه النخل وصغارها نظرة إعجاب ورضا ، وغبطة وسرور ؛ لحسن منظرها ، ونضارة خضرتها ، فأضفى عليها صفات الظباء فى حسنها ورقتها ، وبهائها ورونقها ، فاستعار الأطلاء لفسائلها[3] وكلماته شاهدة على ذلك ؛ فقد وصفها بأنها دهم أى خضراء ، وحديقة دهماء مدهامة أى خضراء تضرب إلى السواد ، وفى التنزيل العزيز (مدهامتان)[4] أى سوداوان من شدة الخضرة من الرى[5] فهى ولا ريب استعارة مفيدة لملاحظة مشابهة بين المستعار منه ، والمستعار له ، وليست مجرد نقل اسم مكان اسم آخر .

---

(١) زُهاؤها : شخوصها ، وأطلاؤها : أولادها يعنى فسلانها .
ينظر لسان العرب ٢ /١٤٤ (دهم)
(٢) لسان العرب ٤ /٢٧٠٠ (طلى)
(٣) حكى صاحب اللسان عن بعض اللغويين أن الطلا هو الصغير من كل شئ ، وعلى ذلك يكون إطلاقه على الصغير من كل شىء حقيقة عندهم ٤ /٢٧٠٠ (طلى)
(٤) الرحمن /٦٤
(٥) لسان العرب ٢ /١٤٤٤ (دهم)

وكأن هذا الرجّاز يشير من طرف خفى إلى أنه يعيش فى أرض مَذْأَبَةٍ غير آمنة ، ولا مطمئنة ، تعدو الذئاب فيها على الناس ، والحيوانات ، فهو يغبط هذه النخيل على ما تتمتع به من أمن واطمئنان على نفسها وأولادها .

ومما هو بسبيل من ذلك استعارة الهَجْمَةِ وهى « القطعة الضخمة من الإبل ، وقيل هى ما بين الثلاثين إلى المائة . . . »[1] – للكثير من النخيل فى عظيم نفعها ، وكثرة أحمالها ، وهى كسابقتها طرفاها حيوانات ، وأشجار ، المستعار منه الهجمة من الإبل ، والمستعار له ، الكثير من النخل جاء فى لسان العرب :

« . . واستعار بعض الشعراء الهجمة للنخل محاجيا بذلك فقال :

إلى الله أشكو هجمة عربية أضرَّ بها مرُّ السنين الغوابر
فأضحت روايا تحمل الطين بعدما تكون ثمالَ المقترين المفاقر[2]

ويبدو أن هذا الشاعر كان لا يعرف عدد تلك الإبل والنخيل على وجه الدقة والتحديد يؤكد ذلك أن الهجمة عددها غير معين ، وقد أورد فيه صاحب اللسان عدة أقوال[3] .

ويظهر من كلمات الشاعر أنه يذكر فضل هذه النخيل فى سالف

---

(١) المصدر نفسه ٦ /٢٦٢٤ (هجم)

(٢) الروايا – جمع رواية البعير . لسان العرب ٣ /١٧٨٥ (روى)
والثمال – بكسر الثاء – الغياث . نفسه ١ /٥٠٦ (ثمل)
والمقترين : المضيق عليهم فى الرزق .
ينظر لسان العرب ٥ /٣٥٢٥ (قتر)
والمفاقر : وجوه الفقر لا واحد لها ، وأغنى الله مفاقره أى وجوه فقره .
لسان العرب ٥ /٣٤٤٥ (فقر)

(٣) ينظر لسان العرب ٦ /٢٦٢٤ (هجم)

عهدها ، وأنها كانت معطاء ، تحمل الكثير من البسر والرطب ، ولكن مر السنين أضر بها ، وجعلها عديمة النفع ، إما لأنها أصبحت لا تثمر لقدم سنها ، أو ، لأنها قلعت من أماكنها ، وقطعت سوقها ، ووضعت فى بعض الأماكن ، أو فى سُقُف بعض البيوت تحمل الطين ، فأضحت تشبه الإبل التى تحمل الطين بعد أن كانت تحمل ما طاب من الطعام والشراب ، وغيرهما ، وقد كانت هذه النخيل فى عهدها الغابر تغيث بثمارها الفقراء ، والمحتاجين تطعمهم ، وتسد خلتهم ، ولسان حال ذلك الشاعر يقول ما قاله أمير الشعراء بعده بسنين عددا :

أهذا هو النَّخْلُ مَلْكُ الرياض أميرُ الحقول عروسُ الْعِزَبْ
طعامُ الفقير وحلوى الغنىّ وزادُ المسافر والمغتربْ
وأنتن فى البيد شاةُ الْمُعِيل جناها بجانب أخرى حَلَبْ(١)

وعلى ذلك تكون استعارة الهجمة من الإبل للكثير من النخل استعارة مفيدة ؛ لأنها مبنية على التشبيه ، وملاحظة الصفات المشتركة بين الإبل والنخيل .

ومن هذا القبيل استعارة اسم ولد الأتان(٢) لابن الإنسان ، فطرفاها حيوان وإنسان ، الحيوان مستعار منه ، والإنسان مستعار له ، جاء فى لسان العرب « التولب ولد الأتان من الوحش .

. . . ويقال للأتان أم تولب ، وقد يستعار للإنسان قال أوس بن حجر

---

(١) ديوان أحمد شوقى ٤ /٦٤ من قصيدة النخيل ما بين المنتزه وأبى قير .

(٢) الأتان : الحمارة والجمع آتن ، وأتن ، وأُتُنٌ ، وفى حديث ابن عباس - رضى الله عنهما - جئت على حمار أتان . الحمار يقع على الذكر والأنثى ، والأتان والحمارة الأنثى خاصة .

لسان العرب ١ /٢١ (أتن)

يصف صبيا :

وذاتُ هِـدْمٍ عـار نواشرهـا تصمت بالماء تولبا جَدِعَـا[1]

وإذا كانت أم هذا الطفل تلبس ثوبا خلقا مرقعا ، وابنها سيء الغذاء ، لا تجد أمامها ما تسد به رمقه إلا الماء تسكنه به ، فهما فى غاية المسكنة ، والفقر المدقع ، وقد استعار الشاعر التولب ، وهو ولد الحمارة ، لابن هذه المرأة ، ليبرز مدى هزاله ، وضعفه ، وسوء حاله ، كل ذلك يوحى بأنها استعارة مفيدة ؛ لأنها تعتمد على التشبيه ، وادعاء اتصافه بصفات التولب الذى ساء غذاؤه ، ونضب رواؤه ، وشحب لونه ، وضعف عظمه ، ومناسبة القصيدة التى منها هذا البيت ترشح تلك المعانى ، وتساندها ؛ فهو من قصيدة يرثى بها الشاعر فضاله بن كلدة ، ومطلعها من المطالع الرائعة فقد بدأها بقوله :

أيتها النـــفس أجملى جزعـــا إن الذى تحذرين قد وقعا

إن الذى جمع السماحة والنجـ ـــدة والحزم والقـوى جمعـا
الألمعى الذى يظن بك الظـ ـن كأن قدر رأى وقد سمعا

إلى أن قال :

ليبكك الشَّرْبُ والمدامة والْفِتْـ ـيانُ طـرا وطامـع طمعـا
وذات هدم ....[2]

---

(١) لسان العرب ١ /٤٣٨ (تلب)

وقد ذكرت معانى كلماته فى موضع سابق أثناء تناول هذه الاستعارة عند « قدامة »

(٢) ديوان أوس بن حجر ٥٣ - ٥٥ تحقيق وشرح د محمد نجم ، ط ثالثة دار صادر ، بيروت ١٩٧٩م .

فهذه المرأة المسكينة تبكى هذا المرثى ؛ لأنه كان ملجأ لها ، وغوثا لأمثالها من الضعفاء والمحاويج ، وما قلته حول هذا البيت يعتبر غيضا من فيض ، وقليلا من كثير مما ذكره شيخ البلاغة العربية عبد القاهر الجرجانى حول هذا البيت فقد قال :

« . . . فأجرى التولب على ولد المرأة ، وهو لولد الحمار فى الأصل ، وذلك لأنه يصف حال ضر وبؤس ، ويذكر امرأة بائسة فقير ، والعادة فى مثل ذلك الصفة بأوصاف البهائم ، ليكون أبلغ فى سوء الحالة ، وشدة الاختلال ، ومثله سواء قول الآخر :

وذكـــــرت أهلى بالعـــــرا ق وحاجة الشعث التـوالب

كأنه قال الشعث التى لو رأيتها حسبتها توالب ، لما بها من الغبرة وبذاذة الهيئة »[1] .

وقد أولى العلماء ضبط كلمة « جدعا » اهتمامهم ، وعنايتهم ، فقد قال الشيخ عبد القاهر عقب كلامه السالف ذكره « والجدع فى البيت بالدال غير معجمة حكى شيخنا رحمه الله قال : أنشد المفضل « تصمت بالماء تولبا جذعا » بالذال المعجمة فأنكره الأصمعى وقال : إنما هو (تصمت بالماء تولبا جدعا) وهو السيئ الغذاء ، قال فجعل المفضل يصيح ، فقال الأصمعى : لو نفخت فى الشبور ، ما نفعك تكلم بكلام الحكل[2] وأصب »[3] .

---

(١) أسرار البلاغة /٢٧

(٢) فى لسان العرب : الحُكْلُ بالضم العُجْم من الطيور والبهائم ، وكلام الحكل كلام لا يفهم . . .

٢ /٩٥١ (حكل)

(٣) أسرار البلاغة /٢٧

وقد أورد ابن جنى قصة الخلاف بين المفضل والأصمعى حول ضبط كلمة (جدعا) =

وهذا يدل على مدى حرص هؤلاء العلماء على التحفى باللغة العربية ، والمحافظة عليها وعلى ألفاظها خالية من التصحيف والتحريف ؛ لأنها وعاء القرآن الكريم وحاملة سنة رسول الله ﷺ .

ومن استعارة ذات لذات استعارة الحفان ، وهو ولد النعام لصغار الإبل ، وتلك الاستعارة طرفاها طائر وحيوان ، المستعار منه الطائر ، والمستعار له صغار الإبل جاء فى لسان العرب :

« . . . والْحَفَّان ولد النعام ، وأنشد لأسامة الهذلى :

وإلا النَّعـــامَ وحَفَّانَـــهُ وطُغْيا مع اللِّهـقِ الناشِـطِ[1]

= برواية لا تخرجها عن مضمونها الذى ذكره الشيخ عبد القاهر فقال :

« وقال الرياشى حدثنى الأصمعى قال ناظرنى المفضل عند عيسى بن جعفر فأنشد بيت أوس :

وذات هـــدم عـــار نواشرهـــا تصـــمت بـــالماء تولبـــا جدعـــا

فقلت هذا تصحيف لا يوصف التولب بالإجذاع ، وإنما هو (جدعا) وإنما هو السيئ الغذاء قال فجعل للفضل يشغب عليه فقلت تكلم كلام الثمل وأصب ،لو نفخت فى شبور يهودى ما نفعك شيئا »

الخصائص ، لابن جنى ٣ /٣٠٦ تحقيق محمد على النجار دار الهدى للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان .

وحكى صاحب لسان العرب هذه القصة التى وقعت بين المفضل والأصمعى وفيها زيادة على ما تقدم أنهما تحاكما لغلام من بنى أسد حافظ للشعر « فصدّق الأصمعى وصوّب قوله فقال له المفضل وما الجدع ؟ قال السئ الغذاء »

١ /٥٦٨ (جدع)

(١) الطُّغيا : الصغير من بقر الوحش . وبعضهم يفتح الطاء .

لسان العرب ٢ /٩٣٢ (حفف)

واللِّهِق : الأبيض الشديد البياض .

نفسه ٥ /٤٠٨٧ (لهق) .

. . . قال ابن برى واستعارة أبو النجم لصغار الإبل فى قوله :
والحشو من حفّانها كالحنظل[1]

فشبهها لما رويت من الماء بالحنظل فى بريقه ونضارته . . »[2] .

ولا ندرى إن كان أبو النجم يمدح صغار الإبل أم يذمها ، وقد ترك الشيخ عبد القاهر هذا الشاهد دون أن يتلمس له وجها من المدح أو الذم حتى يمكن معرفة إفادة هذه الاستعارة من عدمه ، بل أبقاه شاهدا على أن الاستعارة فيه لفظية غير مفيدة فقال :

« . . . وقال آخر : والحشو من حفانها كالحنظل فأجرى الحفان على صغار الإبل ، وهو موضوع لصغار النعام »[3] وكلمة (كالحنظل) التى شبه بها صغار الإبل فى البريق والنضارة تشعر بمدح صغار الإبل ، وعليه تكون الاستعارة مفيدة ، لكن ذلك يعارضه أن الشيخ عبد القاهر أبقى هذه الاستعارة شاهدا على أنها استعارة غير مفيدة ، وقد تأملت هذا الشاهد مليا ، وبحثت فى مظان وجود هذه المادة فى لسان العرب لعلى أجد سرا فى إبقائها لفظية عند الشيخ ضربة لازب ، فلم أهتد إلى شىء ، ولعله - والله أعلم - أبقاها كذلك ، لأنه لا يتأتى فيها المدح ؛ لأن صغار الإبل إذا شبهت بالنعام ،

= والناشط الثور الوحشى الذى يخرج من بلد إلى بلد نفسه ٦ / ٤٨٢٨ (نشط) .

(١) حشو الإبل وحاشيتها : صغارها ، وكذلك حواشيها ، واحدتها حاشية .
نفسه ٢ /٨٩١ (حشا)
والحنظل : الشجر المر . . . واحدته حنظلة .
نفسه ٢ /١٠٢٥ (حنظ)

(٢) لسان العرب ٢ /٩٣٢ (حفف)

(٣) أسرار البلاغة /٢١

كان مسخا لها ؛ لأن النعام أقماً منها جسما ، وأصغر هيكلا ، ولا يتأتى الذم أيضا ؛ لأن تشبيهها بالحنظل فى البريق والنضارة يتعارض معه .

والمخرج من ذلك - فيما أحسب - وأرجو ألا أكون مخطئا - أن هذا الشاهد ليس فيه استعارة ، وإنما هو من قبيل الحقيقة ، فقد جاء فى لسان العرب :

« والحفّانُ فراخ النعام . . . وربما سموا صغار الإبل حفانا للذكر والأنثى جميعا ، وأنشد ابن برى :

والحشو من حفانها كالحنظل[1]

وقوله أيضا « . . . وقيل الحفان صغار النعام والإبل ، والحفان من الإبل أيضا ما دون الحقاق . . »[2] .

ويكون الشيخ عبد القاهر قد ذكرها من الاستعارة تبعا لقول بعض اللغويين ، دون أن يقلب النظر فيها على وجوهه المختلفة .

ومن استعارة ذات لذات استعارة اسم بيض الضبة لاسم بيض الطير فطرفا هذه الاستعارة بيض وبيض ، المستعار منه بيض الضبة ، والمستعار له بيض الطير جاء فى لسان العرب :

« المكْنُ والمكِنُ بيض الضبة والجرادة ونحوهما ، قال أبو الهندى واسمه عبد المؤمن بن عبد القدوس :

---

(١) لسان العرب ٢ /٩٣٤ (حفن)

(٢) المصدر نفسه ٢ /٩٣٢ (حفف)

والحقاق من الإبل جمع حِقّ وَحِقَّة ، وهو الذى دخل فى السنة الرابعة ، وعند ذلك يتمكن من ركوبه .

نفسه ٢ /٩٤٣ (حقق)

ومكن الضباب طعام العُريب ولا تشتهيه نفوس العجم

. . . وقوله ﷺ أقروا الطير على مكناتها[١] ومكناتها بالضم قيل يعنى بيضها على أنه مستعار لها من الضبة ؛ لأن المكن ليس للطير . . . قال أبو عبيد سألت عدة من الأعراب عن مكنانها فقالوا لا نعرف للطير مكنات ، وإنما هى وكنات ، وإنما المكنات بيض الضباب ، قال أبو عبيد وجائز فى كلام العرب أن يستعار مكن الضباب ، فيجعل للطير تشبيها بذلك ، كما قالوا مشافر الحبش ، وإنما المشافر للإبل . . »[٢] فالمكن مستعار من الضباب للطير ، وظاهر الأمر ينبىء بأنها استعارة لفظية غير مفيدة ، وضع فيها اسم بيض مكان آخر ، ولكن واقع الأمر وحقيقته - كما يبدو - أنها استعارة مفيدة ؛ لأن بيض الضباب شهىّ عند العرب كما يدل عليه قول شاعرهم الآنف الذكر ، فهو أثير لديهم ، مفضل عندهم على بيض الطير ، ويؤكد ذلك ما جاء «فى حديث أبي سعيد لقد كنا على عهد رسول الله ﷺ يهدى لأحدنا الضبة المكون أحب إليه من قول من أن يهدى إليه دجاجة سمينة »[٣] .

واضح من قول الشاعر ثم هذا الحديث أن العرب تحب بيض الضباب ، وتشتهيه ، على حين تعافه نفوس العجم وتجتويه ، وعلى ذلك تكون استعارة اسم بيض الضباب لبيض الطير استعارة مفيدة ، لما فيها من إشعار بمدح بيض الضباب ، وكلام أبي عبيد الذى قدمت ذكره صريح فى ذلك حيث جعل مكن الضباب مستعارا للطير عندهم على سبيل التشبيه ، كما نظّره باستعارة

---

(١) ينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير ٤ /٣٥٠
تحقيق طاهر الزاوى وآخر ، المكتبة العلمية - بيروت

(٢) لسان العرب ٦ /٤٢٤٩ (مكن)

(٣) ينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير ٤ /٣٥١

مشافر الإبل لشفاه الحبش ، فكلامه جلى فى أنها استعارة مفيدة .

وقد يجمل هنا أن نعرج على معنى قول الرسول ﷺ فى الحديث المذكور آنفا (أقروا الطير على مكناتها) وقد أورد صاحب لسان العرب فى معناه عدة أقوال أولاها بالقبول ما رواه الأزهرى عن يونس قال : « قال لنا الشافعى فى تفسير هذا الحديث قال كان الرجل فى الجاهلية إذا أراد الحاجة أتى الطير ساقطا أو فى وكره فنفّره ، فإن أخذ ذات اليمين مضى لحاجته ، وإن أخذ ذات الشمال ، رجع ، فنهى رسول الله ﷺ عن ذلك ، قال الأزهرى والقول فى معنى الحديث ما قاله الشافعى وهو الصحيح »[1] .

فالحديث يأمر المسلمين ألا يتخلقوا بأخلاق الجاهلية ، ويطلب منهم أن يقروا الطيور فى أماكنها ، ويتركوها فى مواضعها ، ولا يزجروها لتطير يمنه أو يسرة ، فيتفاءلوا بها ، أو يتشاءموا منها ، لأنها تصدهم عن مصالحهم ، وليس لها تأثير فى جلب نفع ، أو دفع ضر .

* * *

(١) لسان العرب ٦ /٤٢٥٠ (مكن)

استعارة أسماء الأعضاء

كانت استعارة أسماء الأعضاء بعضها مكان بعض من أبرز مظاهر الاستعارة غير المفيدة التى عرض لها الشيخ عبد القاهر الجرجانى[١] وهى فى الوقت نفسه تعتبر مظهرا من مظاهر ثراء اللغة العربية ، وسعة أفقها ، واستيعابها لحياة الناس ، وما خلق الله فى السموات والأرض ، فقد وضع العرب للشيء الواحد أسامى كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان مراعاة للفروق والدقائق فى المعانى المدلول عليها[٢] كوضع البرثن للأسد ، والحافر للدواب من الخيل ، والبغال ، والحمير ، والمشفر للبعير ، والجحفلة للفرس ، وغير ذلك .

وتكون استعارة هذه الأعضاء بعضها مكان بعض من قبيل الاستعارة غير المفيدة ، إن وضع اللفظ مكان الآخر ، دون ملاحظة التشبيه على ما سلف بيانه ، أما إن روعى فيها شبه بين المستعار منه ، والمستعار له ، فهى استعارة مفيدة ، فمن ذلك استعارة برثن الأسد ، وهو مخلبه لأصابع الإنسان ، فالمستعار منه برثن الأسد ، والمستعار له أصابع الإنسان جاء فى لسان العرب : « البرثن مخلب الأسد . . . والبراثن للسباع كلها ، وهى من السباع والطير بمنزلة الأصابع من الإنسان ، كما قال ساعدة بن جؤية يذكر النحل ومشتار العسل :

حتى أشب لها وطال أبـابها ذو رجلة شنن البراثن جحنب[٣]

---

(١) ينظر أسرار البلاغة /٢١

(٢) المرجع نفسه /٢١ وما بعدها .

(٣) فى لسان العرب : أسد شثن البراثن - خشنها ، وفى صفته صلى الله عليه وسلم =

والجحنب القصير ، ليس يهجوه ، وإنما أراد أنه مجتمع الخلق . . . »[١] ففى قول الشاعر (شنن البراثن) استعيرت البراثن لأصابع الرجل الذى يشتار العسل ، فهو متين الأصابع قويها ، مجتمع الخلق ، كأن فيه قوة الأسد ، فاستعارة البراثن لأصابع هذا الرجل اعتمدت على التشبيه ، فهى استعارة مفيدة ، وإن بدت فى أول الأمر غير مفيدة ، وضع فيها لفظ مكان لفظ آخر فحسب ، لكن المقصود منها إبراز أصابع هذا الرجل فى معرض مخالب الأسد ، وقوتها ؛ ولذلك عدت استعارة مفيدة .

وفى عكس ذلك نجد أظافر الإنسان ، وهى أقل قوة ، وحدة من مخلب الأسد ، وبرثنه ، قد استعيرت لذلك المخلب فى قول زهير بن أبى سلمى :

لدى أسد شاكى السلاح مقذف لـه لبـد أظفـاره لم تقلـم[٢]

فالمستعار منه أظفار الإنسان ، والمستعار له برثن الأسد ، أو مخلبه ، وهذا يعتبر إضعافا لتلك الاستعارة ؛ لأن فيها استعارة الأقل قوة للأقوى جاء فى لسان العرب عند الكلام عن استعارة اسم مكن الضباب لبيض الطير :

« . . . وجائز فى كلام العرب أن يستعار مكن الضباب ، فيجعل للطير تشبيها بذلك ، كما قالوا مشافر الحبش ، وإنما المشافر للإبل ، وكقول زهير يصف الأسد :

= شثن الكفين والقدمين أى أنهما تميلان إلى الغلظ والقصر ورجل شثن الأصابع أى غليظها خشنها . ٤ /٢١٩٥ (شثن)

(١) لسان العرب ١ /٢٤٣ (برث)

(٢) شاكى السلاح أى تام السلاح . ومقذف : أى يقذف به كثيرا إلى الوقائع واللبد جمع لبدة ، وهى ما تلبد من شعره على منكبيه ينظر شرح المعلقات السبع ، للزوزنى /٩٨ — ٩٩ المكتبة التجارية الكبرى ١٩٦١م

لدى أسد شاكى السلاح .... البيت

وإنماله المخالب »[١] .

فكما يستعار مكن الضباب لبيض الطير ، ومشافر الإبل لشفاه الحبش تستعار أظافر الإنسان لمخلب الأسد ، وإن كان المستعار منه فى الاستعارة الأخيرة أقل من المستعار له فى وجه الشبه .

واستعارة الأسد للممدوح فى بيت (زهير) مشهورة متداوله فى كثير من كتب البلاغة قديمها ، وحديثها - فمثلا - ساقه الخطيب القزوينى فى باب الاستعارة شاهدا على اجتماع التجريد ، والترشيح فى البيت فقال :

« وقد يجتمع التجريد والترشيح كما فى قول زهير :

لدى أسد شاكى السلاح مقذف له لبد أظفاره لم تقلم[٢]

ولكنه لم يعين موضع التجريد ، والترشيح فى البيت ، وقد بين ذلك الشيخ عبد المتعال الصعيدى فقال : والاستعارة فى قوله « أسد » و« شاكى السلاح » تجريد ، ومقذف تجريد إن كان بمعنى مقذف فى الحروب ، وإلا فليس بتجريد ، ولا ترشيح ، وما بعده إلى آخر البيت ترشيح »[٣] .

فقوله « وما بعده إلى آخر البيت ترشيح » يدل على أنه اعتبر قول زهير : (أظفاره لم تقلم) ترشيحا لاستعارة « أسد » مع أن الآظفار - كما أوردت عن لسان العرب - مستعارة للأسد ؛ لأن له المخالب ، فهى من ملائمات المستعار له ، وهو الرجل الشجاع ، فتكون تجريدا ، لا ترشيحا ، وليس الشيخ الصعيدى - رحمه الله - أوحديا فى اعتبار (أظفاره) ترشيحا بل قال

---

(١) لسان العرب ٦ /٤٢٤٩ (مكن)

(٢) بغية الإيضاح ٣ /١٤٢

(٣) المرجع نفسه هامش ٣ /١٤٢ .

ذلك كثير[١] .

وقد أشار الإمام فخر الدين الرازى إلى أن (أظفاره) فى البيت تجريد ، لأنها لو كانت ترشيحا ، لقال (زهير) لدى أسد وافى المخالب ، أو دامى البراثن[٢] .

وتنبه « العصام » إلى أن تقليم أظفاره أشبه بالتجريد ، لا بالترشيح ، فقال : « وفى كون عدم التقليم ترشيحا نظر ؛ لأن الأسد بعيد عن الوصف بعدم تقليم الظفر ، بل هو بالتجريد أشبه ؛ لأنه إنما يوصف بعدم تقليم الظفر ما من شأنه التقليم »[٣] .

فالذى يوصف بعدم تقليم الأظفار الإنسان ؛ لأنه الذى يقلم أظفاره ، فيكون هذا الوصف ملائما للمستعار له ، فهو تجريد .

ومن استعارة الأعضاء بعضها مكان بعض استعارة حافر الدابة لقدم الإنسان ، فالاستعارة من حيوان لإنسان المستعار منه الحافر ، والمستعار له قدم الإنسان ، جاء فى لسان العرب :

. . . والحافر من الدواب يكون للخيل ، والبغال ، والحمير اسم كالكاهل والغارب ، والجمع حوافر . . . ويقولون للقدم حافرا إذا أرادوا تقبيحها ، وقد استعاره الشاعر فى القدم قال جبيها الأسدى يصف ضيفا

---

(١) ينظر - مثلا - الإفصاح عما تضمنه الإيضاح من مباحث البيان ، للدكتور أحمد محمد الحجار /١٨٩ دار الاتحاد العربى للطباعة ١٩٧٣م .

والبيان بين عبد القاهر والسكاكى ، للدكتور على البدرى /١٩٥ ط أولى ١٩٧٧م مطبعة السعادة - القاهرة .

(٢) ينظر نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز /٩٢ مطبعة الأداب ١٣١٧هـ .

(٣) الأطول ٢ /١٤٤ .

طارقا أسرع إليه :

فأبصر نارى وهى شقراء أوقدت بليل فلاحت للعيون النواظر[١]
فما رقد الوالدان حتى رأيته على البكر يمر به بساق وحافر

ومعنى يمريه يستخرج ما عنده من الجرى »[٢] .

فقوله (ويقولون للقدم حافرا إذا أرادوا تقبيحها) يدل على أن الاستعارة فى البيت مفيدة ؛ لأنها جاءت لغرض الذم لقدم ذلك الطارق فهى قائمة على أساس التشبيه .

وقد تناول الشيخ عبد القاهر استعارة الحافر للقدم فى البيت الذى تقدم ذكره ، واعتبرها مفيدة أيضا فقال : « . . . وأما قول مزرّد[٣] .

فما رقد الولدان .... البيت

فقد قالوا إنه أراد أن يقول بساق ، وقدم ، فلما لم تطاوعه القافية ، وضع الحافر موضع القدم ، وهو وإن كان قد قال بعد هذا البيت ما يدل على قصده أن يحسن القول فى الضيف ، وتباعده أن يكون قصد الزراية عليه ، أو يحول حول الهزء به ، والاحتقار له ، وذلك قوله :

فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا بهذا المحيا من محى وزائر

---

(١) معنى شقراء : ذهب دخانها وذلك أشد لضوئها .

(٢) لسان العرب ٢ /٩٢٥ (حفر) .

(٣) جاء فى هامش (أسرار البلاغة) تحقيق هـ ريتر أن البيت ليس لمزرّد إنما لجبيهاء الأشجعى ، كما صرح به فى جمهرة اللغة ، واسمه يزيد بن خيثمة شاعر بدوى فى الدولة الأموية /٣٥ .

وفى لسان العرب (ومزرّد بن ضرار أخو الشماخ الشاعر) .

٢ /١٨٢٤ (زرد) .

فليس بالبعيد أن يكون فيه شوب مما مضَى ، وأن يكون الذى أفضى به إلى ذكر الحافر قصده أن يصفه بسوء الحال فى مسيره ، وتقاذف نواحى الأرض به ، وأن يبالغ فى ذكره بشدة الحرص على تحريك بكره ، واستفراغ مجهوده فى نفسه »[١] .

ويضيف الشيخ عبد القاهر قائلا : « ويؤنس بذلك أن تنظر إلى قوله قبل :

وأشعث مسترخى العلابى طوحت
به الأرض من باد عريض وحاضر[٢]
فأبصر نارى وهى شقراء أوقدت بعلياء نشز للعيون النواظر[٣]

وبعده (فما رقد الوالدان) فإذا جعله أشعث مسترخى العلابى ، فقد قربت المسافة بينه وبين أن يجعل قدمه حافرا ليعطيه من الصلابة ، وشدة الوقع على جنب البكر حظا وافرا »[٤] .

وهكذا استطاع الشيخ بأسلوبه الفذ ، وبيانه الخلاب ، وعرضه البديع أن يرتفع بهذه الاستعارة من حضيض اللفظية المتهافتة إلى يفاع المعنوية المفيدة ، على الرغم من أن القرائن التى تكتنفها ، وتحيط بها تشدها إلى تلك اللفظية ، فالشاعر لا يريد أن يذم صنيفه الطارق المنتاب عندما جعل قدمه

---

(١) أسرار البلاغة /٢٥ -٢٦ .

(٢) العلابى : جمع علباء وهى عصبة صفراء فى صفحة العنق هامش (أسرار البلاغة) ٢٦ .

(٣) النشز : المكان المرتفع . ينظر لسان العرب ٦ /٤٤٢٥ (نشز وقد اختلفت رواية الشيخ لهذا البيت عن الرواية التى جاءت فى لسان العرب فى بعض الكلمات ، وقد أوردتها فى مطلع الحديث عن هذه الاستعارة .

(٤) أسرار البلاغة /٢٦ .

حافرا ، وإنما يريد أن يقول إنه أضحى مكدودا من وعثاء السفر ، ومكابدة مشقته وشدته ، فاستفرغ جهده فى حث بكره على سرعة المسير ، ونخسه بقدم صلبة قوية الوقع ، كأنها الحافر الصلب الشديد .

وكما استعير حافر الدابة لقدم الإنسان إذا أريد تقبيحها ، استعير خف البعير لقدم الإنسان ذما لها جاء فى لسان العرب :

« الخف خف البعير ، وهو مجمع فرسن البعير ، والناقة تقول العرب هذا خف البعير ، وهذه فرسنه . . . وفى حديث المغيرة غليظة الخف استعار خف البعير لقدم الإنسان مجازا »[1] .

فالاستعارة هنا أيضا بين حيوان وإنسان ، المستعار منه خف الجمل ، والمستعار له قدم المرأة ، وكلمات الحديث تنبىء أن هذه المرأة المتحدث عنها غليظة القدم ، فاستعار لها خف البعير ، يقصد من ذلك ذمها بغلظ قدمها ، وخشونة ملمسها ، وإذا كانت خشونة القدم ، وغلظها عيبا ، ولو كان فى الرجال على حد قول المتنبى يذم كافورا :

وتعجبنى رجلاك فى النعل إننى أراك ذا نعل إذا كنت حافيا

فإنه يكون فى المرأة أكثر عيبا ، وأدعى إلى النفور منها ، وما دامت هذه الاستعارة ترمى إلى عيب تلك القدم ، وإلحاق النقص بها ، والزراية عليها ، فإنها تعتبر فى عداد الاستعارة المفيدة ، وتحتسب من صميمها وخالصها ، وإن كانت بين أعضاء من جنسين مختلفين ، ورحم الله عبد القاهر الجرجانى شيخ البلاغة العربية ، وإمامها ، فهو الذى علمنا كيف نميز بين الاستعارتين المفيدة ، وغير المفيدة .

---

(١) لسان العرب ٢ /١٢١٣ (خفف) والحديث فى كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير ٢ /٥٥ .

وإذا كان حافر الدواب ، وخف البعير قد استعيرا لقدم الإنسان - كما سبق - فإن الظلف ، وهو للشاة ، والبقرة ، والظبى ، قد استعير للإنسان كذلك لقصد الذم والعيب جاء فى لسان العرب :

« الظَّلف والظِّلْفُ كل ما اجتر ، وهو ظلف البقرة ، والشاة ، والظبى ، وما أشبهها ، والجمع أظلاف ابن السكيت يقال رجل الإنسان ، وقدمه ، وحافر الفرس وخف البعير ، و النعامة ، وظلف البقرة ، والشاة ، واستعاره الأخطل فى الإنسان فقال :

إلى ملك أظلافه لم تشقق

قال ابن برى استعير للإنسان ، قال عقفان بن قيس بن عاصم :

سأمنعها أو سوف أجعل أمرها إلى ملك أظلافه لم تشقق[1]

سواء عليكم شؤمها وهجانها وإن كان فيها واضح اللون يبرق

الشؤم السود من الإبل ، والهجان بيضها »[2] .

والذى يهمنا فى المقام الأول هنا أن الأظلاف استعيرت للإنسان ، وهى مشعرة بالذم ، فتكون الاستعارة مفيدة ، لملاحظة شبه بين المستعار منه ، والمستعار له ، وقد سبق أن أشرت إلى أن (أبا هلال العسكرى) عاب هذه الاستعارة وجعل قبحها متناهيا ، كأنه يرى أنها متأصلة فى اللفظية عريقة

---

(١) سبق ذكر مناسبة هذا الشاهد عند الكلام على تلك الاستعارة عند الآمدى . ونلحظ أن صاحب لسان العرب نسب البيت الذى فيه الاستعارة فى صدر الكلام إلى الأخطل ، وفى عجزه إلى عقفان بن قيس ، وواضح أنه ينقل فى أول كلامه عن (ابن السكيت) وفى آخره عن ابن برى ، ولعله لم يفطن لهذا التضارب . والبيت لعقفان بن قيس ، وقد ذكرت ذلك فيما سبق ، . وينظر (أسرار البلاغة) تحقيق هـ ريتر /٣٧ .

(٢) لسان العرب ٣ /٢٧٥١ -٢٧٥٢ (ظلف) .

فى عدم الفائدة ، لا يرجى أن يتحسس لها وجه من الإفادة ، أو يتلمس لها طريق من الصحة والصواب ، ولكن الشيخ عبد القاهر عندما تناولها بعد ذلك بقلمه الممتع ، وبيانه المقنع ، جعل منها استعارة مفيدة ، وأزال عن وجهها هذا القبح ، وتلك الدمامة[١] .

وإذا كان (أبو هلال العسكرى) وعبد القاهر الجرجانى ، قد اختلفا فى فهم استعارة واحدة فجعلها أحدهما محض القبح ، واعتبرها الآخر مفيدة لا قبح فيها ، فإن هذا يؤكد أن هذه الاستعارة لا تختلف فى شكلها ، وصورتها خصوصا إذا كانت مقتطعة من سياقها مبتورة عن مناسبتها ، ولكنها تختلف فى مضمونها وفحواها ، ولذلك تتباين الأفهام فى توجيهها ، وتختلف العقول فى الإحاطة بها .

ويستعار للإنسان كذلك مشفر البعير مكان شفته ، إذا كانت غليظة ، فتكون الاستعارة بين حيوان وإنسان ، المستعار منه عضو الحيوان ، والمستعار له عضو الإنسان ، جاء فى لسان العرب :

« . . . والمشفر للبعير كالشفة للإنسان ، وقد يقال للإنسان مشافر على الاستعارة . . . قال الفرزدق :

فلو كنت ضبيا عرفت قرابتى ولكن زنجيا عظيم المشافر[٢]

. . . المشفر للبعير كالشفة للإنسان ، والجحفلة للفرس[٣] فاستعارة

---

(١) سبق كلام كل منهما حول الاستعارة فى البيت بشىء من البسط عند بيان موقفهما من الاستعارة غير المفيدة .

(٢) ذكر هذا البيت فى أثناء الحديث عن هذه الاستعارة عند الاستعارة عن الشيخ عبد القاهر الجرجانى ، وذكرت هناك أن الخطيب القزوينى أورده فى الإيضاح برفع كلمة (زنجى) خلافا لرواية الشيخ عبد القاهر له بنصبها ، وخلافا لرواية لسان العرب للذكورة هنا أيضا ، وبينت وجه رفع تلك الكلمة ونصبها .

(٣) لسان العرب ٤ /٢٢٨٨ (شفر) .

مشافر الإبل للإنسان فى بيت الفرزدق مراد بها ذمه ، وتقبيح صورته ، لأن الشاعر يهجو من قيل فيه هذا البيت ، وبناء عليه تكون تلك الاستعارة مفيدة ، لأنها قائمة على التشبيه ، ومعتمدة عليه .

ومما هو بسبب من ذلك ، ويحسن ذكره هنا أن عظم شفة الإنسان وغلظها ، يعتبر عيبا فيه ، ولكن عظم مشفر البعير وطوله يعتبر صفة مدح له ، وقد ظفرت بهذه الملحوظة فى لسان العرب ، فقد جاء فيه أن المشفر إذا كان مسترخيا متدليا كان ذلك مما يمدح به البعير ، فإذا استعير المشفر المتهدل للإنسان ، فإن ذلك يكون عيبا ظاهرا من باب أولى يقول فى هذا المعنى :

« . . . وتهدلت الثمار ، وأغصان الشجرة أى تدلت ، فهى متهدلة ، وفى حديث قسّ وروضة قد تهدلت أغصانها أى تدلت واسترخت ؛ لثقلها بالثمر ، وفى حديث الأحنف من ثمار متهدلة ، وهدل الشيء يهدله هدلا ، أرسله إلى أسفل ، وأرخاه ، والهدل استرخاء المشفر الأسفل هدل هدلا ، ومشفر هادل وأهدل ، وشفة هدلاء منقلبة عن الذقن ، وهدل يهدل هدلا فهو هدل طال مشفره ، وبعير هدل منه ، وبعير أهدل ، وذلك مما يمدح به . . . »[1] ولم يذكر فى لسان العرب لم كان هذا مدحا للبعير ، والذى يخطر على البال أن ذلك كان مدحا له ؛ لأنه يساعده على تناول الطعام ، وقطف أوراق الشجر خصوصا فى بلاد العرب التى يشح فيها علف الحيوان ، ويندر ، فإذا ما استعير هذا التهدل ، وذلك التدلى لشفة الإنسان ، كان عيبا مفرطا ، ولذلك جاء فى لسان العرب عقب الكلام الآنف الذكر :

« وقد تهدلت شفته أى استرخت ، وإنما يقال رجل أهدل ، وامرأة هدلاء

---

(١) لسان العرب ٦ / ٤٦٣٥ (هدل) .

مستعار من البعير ، وفى حديث ابن عباس أعطهم صدقتك ، وإن أتاك أهدل الشفتين[١] الأهدل المسترخى الشفة العليا الغليظها ، أى وإن كان الآخذ أسود حبشيا ، أو زنجيا ، والضمير فى أعظهم للولاة ، وأولى الأمر »[٢] .

فإذا كانت استعارة المشافر ، وهى غير متدلية ، تعيب الإنسان ، وتشينه ، فإن استعارتها له وهى متهدلة أكثر عيبا ، وأشد قبحا .

ويستعار للإنسان من الحيوان أيضا خرطومه ، فيكون المستعار منه خرطوم الحيوان ، والمستعار له آنف الإنسان جاء فى لسان العرب :

« الخرطوم الأنف . . . أبو زيد الخرطوم والخطم الأنف ، وقوله تعالى : ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾[٣] فسره ثعلب فقال يعنى على الوجه قال ابن سيده وعندى أنه الأنف ، واستعارة للإنسان ؛ لأن فى الممكن أن يقبحه يوم القيامة فيجعله كخرطوم السبع »[٤] .

ففى معنى الخرطوم عدة آراء ، ومعظم العلماء على أنه الأنف ، وفى مقدمتهم ابن سيده ، واختاره صاحب اللسان فبدأ به كلامه ، وهذا هو الذى يتسق مع رأى أغلب العلماء .

وقد ذكر الإمام القرطبى فى تفسيره أن هذه الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة ثم قال : « ولا نعلم أن الله تعالى بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغه منه ، فألحقه به عارا لا يفارقه فى الدنيا والآخرة كالوسم على الخرطوم »[٥] .

---

(١) الحديث فى كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير ٥ /٢٥١ .

(٢) لسان العرب ٦ /٤٦٣٥ (هدل) .

(٣) القلم /١٦ .

(٤) لسان العرب ٢ /١١٣٦ (خرطم) .

(٥) تفسير القرطبى ٦٧١٥ -٦٧١٦ ط الشعب .

فإذا كانت الآية نزلت فى عيب هذا العتل الزنيم لتلحق به عارا وشنارا ، فإن تلك الاستعارة تكون عريقة فى الإفادة ، لا يتطرق إليها شائبة من اللفظية ، أو عدم الإفادة ، فهى مؤسسة على التشبيه ، قائمة عليه ولعل الذكر الحكيم قد آثر السمة على الخرطوم ، المراد به الأنف ؛ لأن المتكبرين من العرب كانوا يشمخون بأنوفهم علوا واستكبارا ، فأراد الله عز وجل ان يلحق بهذا الحلاف المهين (الوليد بن المغيرة) إهانة بالغة ، وذلا مقيما فى الدنيا ، فقد روى أنه أنه خطم على أنفه بالسيف يوم بدر ، فلم يزل مخطوما إلى أن مات[1] وفى الآخرة جزاؤه عذاب أليم يصلاه فى سقر « وما أدراك ما سقر لا تبقى ولا تذر »[2] ومثل ذلك يستعار الخطم ، وهو الأنف ، أو الأنف ومقدم الفم يستعار للإنسان ، فالاستعارة من حيوان لإنسان كسابقاتها جاء فى لسان العرب :

« . . . والخطم من كل دابة مقدم أنفها وفمها . . . أبو عمرو الشيبانى الأنوف يقال لها المخاطم ، واحدها مخطم بكسر الطاء ، وفى حديث كعب يبعث الله من بقيع الغرقد سبعين ألفاهم خيار من ينحت عن خطمه المدر[3] أى تنشق عن وجهه الأرض ، وأصل الخطم فى السباع مقاديم أنوفها وأفواهها فاستعارها للناس »[4] فالخطم ، أو المخطم ، أو المخاطم مستعارة للناس من الحيوانات المشار إليها ، وهذه الاستعارة وإن كان فيها استعارة عضو من الحيوان لواحد من الناس ، أو استعارة أعضاء الحيوانات لكثير من الناس لا يراد بها إلحاق العيب ، أو النقص بالمستعار له ، بل المراد بها - والله أعلم -

---

(١) المرجع نفسه /٦٧١٥ .

(٢) المدثر /٢٧، ٢٨ .

(٣) الحديث فى كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير ٢ /٥٠ .

(٤) لسان العرب ٢ /١٢٠٣ (خطم) .

ملاحظة شبه مّا بين طرفى هذه الاستعارة ، فهى استعارة مفيدة ، جارية على نهج التشبيه ، وسائرة على دربه ، وهى فى حديث البقيع الذى أورده صاحب اللسان - واضحة الدلالة على هذا الشبه ، المشترك بين طرفيها ، فهؤلاء الصحابة الأخيار ، ومن تبعهم بإحسان ، الذين ضم بقيع الغرقد أعظمهم ، يبعثون يوم القيامة ، ويخرجون من أجداثهم ، وقد عفرت الأرض أنوفهم ، وأفواههم ، ووضعت بصماتها على عرانينهم ، فكستها قتامة رقيقة أكسبتها شبها من أنوف هذه الحيوانات ، ومقاديم أفواهها ، فهى ولا شك استعارة مفيدة ، روعى فيها شبه بين المستعار منه ، والمستعار له . وإذا كنا قد رأينا فى كثير من الاستعارات التى تقدمت أن أعضاء من الحيوانات قد استعيرت للإنسان ، فإن استعارة هذه الأعضاء قد توجد بين حيوان وحيوان ، ومن ذلك استعارة الظلف من البقرة ونحوها للخيل جاء فى لسان العرب :

« . . . واستعاره - أى الظلف - عمرو بن معد يكرب للأفراس فقال : وخيل تطأكم بأظلافها .

ويقال ظُلُوفٌ ظُلّف أى شداد ، وهو توكيد لها »[1] فاستعارة الأظلاف من البقر ونحوه للخيل تشعر بشدة وقع حوافر الخيل على من تطؤهم ، وتدوسهم تحت سنابكها ، ويعزز ذلك المعنى ، ويعضده أن الأظلاف مشققة وحادة ، وربما غاصت فى أجسام من تدوسهم ، فهى أشد إيلاما من حوافر الخيل ، من أجل ذلك كانت هذه استعارة مفيدة ، وإن وقعت بين هذه الأعضاء ، لملاحظة مشابهة بين المستعار منه ، والمستعار له .

ومن استعارة عضو مكان عضو يناظره استعارة الجحفلة ، وهى ما تقابل شفة الإنسان من الخيل والبغال والحمير لمشافر الإبل ، فالمستعار منه ذوات الحافر من الدواب ، والمستعار له الإبل ، جاء فى لسان العرب :

---

(١) لسان العرب ٣ /٢٧٥٢ (ظلف) .

« . . . وجحفلة الدابة ما تتناول به العلف ، وقيل الجحفلة من الخيل والحمر والبغال . . . بمنزلة الشفة من الإنسان ، والمشفر للبعير ، واستعاره بعضهم لذوات الخف قال :

جاب لها لقمان فى قلاتها[1]
ماء نقوعا لصدى هاماتها
تلهمه لهما بجحفلاتها[2]

وقد أورد صاحب اللسان هذه الأبيات فى موضع آخر من لسانه ، وزاد عليها رابعا ، وصرح بأن الجحافل استعيرت للإبل ، وهى لذوات الحوافر فقال : « واستعار بعض الرجاز (الدرء) لسيلان الماء من أفواه الإبل فى أجوافها ؛ لأن الماء يسيل هناك غريبا أيضا إذ أجواف الإبل ليست من منابع الماء ، ولا من مناقعه فقال . . .

تلهمه لهما بجحفلاتها
يسيل دُرْءا بين جانحاتها

فاستعار للإبل جحافل ، وإنما هى لذوات الحوافر »[3] .

ففى هذه الأبيات استعارتان أولاهما استعارة الجحفلات من ذوات الحوافر لمشافر الإبل وهذه الاستعارة – فيما يبدو لى – غير مفيدة ألجأ إليها الوزن والقافية ، فوضع فيها لفظ مكان لفظ فقط ، دون مراعاة شبه بين المستعار منه ، والمستعار له ، فلا يتراءى فيها إفادة مدح ، أو ذم حتى يحكم

---

(١) فى لسان العرب : القَلْتُ : النقرة فى الجبل تمسك الماء ، وكذلك كل نقرة فى أرض ، أو بدن ، لعله يريد أجوافها . ٥ /٣٧١٥ (قلت) .

(٢) لسان العرب ١ /٥٥٢ (جحف) .

(٣) المصدر نفسه ٢ /١٣٤٧ (درأ) .

عليها بأنها مفيدة ، أما إنها لا يبدو فيها ذم ، فلأن كلمات الأبيات تنادى بأن الإبل أكثر التهاما للماء (تلهمه لهما) كما قال ، ويتدفق مندفعا فى أجوافها كما فى البيت الأخير ، واستعارة (جحفلاتها) للإبل لو كانت مفيدة ، لأشعرت بأن جرعها للماء مثل شرب ذوات الحوافر ، وكلمات الأبيات ما عداها تلفظه ، وتعانده ، فالشاعر - كما يبدو - كان يريد أن يصف الإبل بأنها تجرع الماء بكثرة ، فيندفع إلى أجوافها ، ولما استعصت عليه كلمة (مشافرها) وضع مكانها (جحفلاتها) فطاش سهمه ، ونبت مضاربه ، وقد جاء فى لسان العرب عقب هذه الأبيات فى أحد المواضع « . . . وأنشد ابن برى . . .

تسمع للماء كصوت المسحل بين وريديها وبين الجحفل[1]

فجعل للإبل جحافل ، وهى لذوات الحوافر »[2] وقد ذكر الشيخ عبد القاهر هذا البيت ضمن أمثلة الاستعارة غير المفيدة فقال :

تسمع للماء .... البيت

فجعل للإبل جحافل ، وهى لذوات الحوافر »[3] ، وأبقى الاستعارة فيه غير مفيدة ، ولم يحاول أن يتأول لها وجها من الإفادة والصواب ، كما صنع بكثير من الأمثلة التى ساقها لتلك الاستعارة فى (أسرار البلاغة) وربما اتخذ منها هذا الموقف ، لأنه وجد فى صدر البيت ما يدل على أن الماء يدخل فى أجواف الإبل مندفعا يسمع خريره ، والإبل أولى بذلك من ذوات الحوافر ،

---

(١) لسان العرب ١ /٥٥٢ المسحل : الحمار الوحشى ، وسحيله أشد نهيقه . لسان العرب ٢ /١٩٥٨ (سحل) .

(٢) لسان العرب ١ /٥٥٢ .

(٣) عبارة (فجعل للإبل جحافل وهى لذوات الحوافر) ليست موجودة فى أسرار البلاغة تحقيق رشيد رضا ، وموجودة فيه تحقيق هـ ريتر /٣٠ .

فكانت استعارة (الجحفل) قلقه فى مكانها غير ملائمة لسياقها .

والثانية استعارة (درءا) فى البيت الأخير من الأبيات المجتمعة التى تقدم ذكرها قريبا ، وهو الاندفاع « لسيلان الماء من أفواه الإبل إلى أجوافها ؛ لأن الماء إنما يسيل هنالك غريبا أيضا إذ أجواف الإبل ليست من منابع الماء ، ولا من مناقعه »[١] .

وهى استعارة مفيدة من أول أمرها ، فلا حاجة إلى بسط القول فيها ، وحسبها هذه الإشارة الدالة .

وإذا كانت الجحافل ، أو الجحفلة قد استعيرت من ذوات الحوافر إلى الإبل ذوات الخف والمشافر ، استعارة بين حيوان وحيوان فإن العضو المناظر لهما ، وهو الشفة من الإنسان قد استعير للفرس مكان جحفلته جاء فى لسان العرب « . . . والشفتان من الإنسان طبقا الفم الواحدة شفة . . . وقد تستعار للفرس قال أبو دؤاد :

فبتنا جلوسا على مهرنا ‌ ‌ ‌ ‌ ننزع من شفتيه الصُّفارا

الصفار يبيس البهمى ، وله شوك يعلق بجحافل الخيل »[٢] فالشفتان فى البيت مستعارتان للمهر ، وهو ولد الفرس[٣] وقد أورد الشيخ عبد القاهر هذا البيت ضمن أمثلة الاستعارة غير المفيدة ، فقال : « . . . وقال آخر .

فبتنا جلوسا لدى مهرنا ‌ ‌ ‌ ‌ .... البيت

فاستعمل الشفة فى الفرس ، وهى موضوعة للإنسان . . . »[٤] .

---

(١) لسان العرب ٢ /١٣٤٧ (درأ) .

(٢) لسان العرب ٤ /٢٢٩٣ (شفه) .

(٣) ينظر المصدر نفسه ٦ /٤٢٨٧ (مهر .

(٤) أسرار البلاغة /٢١ ، ونلحظ أن البيت جاء فى (أسرار البلاغة) برواية (لدى =

وقد أبقاها فى هذا الشاهد غير مفيدة ، ولم يحاول أن يتأول لها وجـ من وجوه التشبيه حتى يجعلها مفيدة ، أسوة بما عمل فى أخوات لها ، ونظائر ، وقد حاولت أن أصل إلى سر إبقائه لها غير مفيدة ، فلم أوفق إلى شيء ، بل على العكس من ذلك وجدت أن هذه الاستعارة توحى بمدح هذا المهر ، وتومىء إلى وصفة بالرقة والرشاقة ، فهو ذو جحفلة صغيرة ، كأنها شفة طفل صغير ، وقد أنزله صاحبه منزلة ابنه الصغير ، فأولاه عنايته ، وسهر على راحته ، والاهتمام بأمره ، كأنه وليده الأثير إلى نفسه ، وعلى ذلك تكون استعارة مفيدة ، لوحظ فيها شبه بين المستعار منه ، والمستعار له .

ومن استعارة عضو من حيوان لحيوان استعارة فرسن البعير لظلف الشاة ، جاء فى لسان العرب :

« والفرسن بالنون للبعير كالحافر للدابة قال ابن سيده الفرسن طرف خف البعير أنثى حكاه سيبويه فى الثلاثى قال والجمع فراسن ... وفى الحديث لا تحقرن من المعروف شيئا ولو فرسن شاة . . . وقد يستعار للشاة فيقال فرسن ، شاة والذى للشاة هو الظلف »[1] فقد تضمن كلام لسان العرب فى معنى الفرسن قولين أحدهما ما ذكره فى صدر كلامه وعجزه ، ومضمونه أن الفرسن هو خف البعير كالحافر للدابة ، والظلف للشاة ، والثانى ما نقله عن ابن سيده وهو عنده لا يشمل الخف كله ، بل طرفه على حدته ، وهو مؤنث ، لكن الخف مذكر كما جاء فى لسان العرب فى موضع آخر « تقول العرب هذا خف البعير ، وهذه فرسنه »[2] .

= مهرنا) بدلا منّ رواية (على مهرنا) التى أوردها صاحب لسان العرب ، وقد ذكر محقق (أسرار البلاغة) هـ ريتر أن الشيخ نقل البيت عن جمهرة اللغة ، وهو فيها غير معزو إلى قائله . هـ ريتر /٣٠ .

(١) لسان العرب ٥ /٣٣٨١ (فرسن) .

(٢) لسان العرب ٢ /١٢١٣ (خفف) .

والحديث النبوى الشريف الذى أورده صاحب اللسان ، واستعيرت فيه فرسن البعير لظلف الشاة جعلنى أتوقف أمام هذه الاستعارة أتساءل هل تكون هذه الاستعارة مفيدة ، أو غير مفيدة ؟ واستبعدت أن تكون غير مفيدة ؛ لأن رسول الله ﷺ أفصح العرب فكلامه منزه عن عدم الإفادة ، مبرأ من الركاكة ، والضحالة ، وإذا كانت مفيدة فما وجه إفادتها ؟

ويحسن قبل الإجابة عن هذا التساؤل أن نتعرف إلى المعنى المقصود ، والغرض المنشود من هذا الحديث ، وهو كما قال بعض الثقات من شراح الحديث « المبالغة فى إهداء الشىء اليسير وقبوله لا إلى حقيقة الفرسن ، لأنه لم تجر العادة بإهدائه أى لا تمنع جاره من الهدية لجارتها الموجود عندها لاستقلاله ، بل ينبغى أن تجود لها بما تيسر وإن كان قليلا ، فهو خير من العدم ، وذكر الفرسن على سبيل المبالغة »[1] فالغرض من قوله ﷺ (ولو فرسن شاة) عدم استقلال الشىء المهدى ، واحتقاره ، ولو كان شيئا يسيرا ، لا يؤبه له ، فهو خير من العدم ، ويترجم هذا المعنى ما جاء فى الموطأ أن مسكينا استطعم عائشة أم المؤمنين ، وبين يديها عنب فقالت لإنسان خذ حبة فأعطه إياها ، فجعل ينظر إليها ويعجب ، فقالت أتعجب ؟ كم ترى فى هذه الحبة من مثقال ذرة »[2] .

وقد قرأت فيما لا أذكر من المراجع أن غرضها - رضى الله عنها - كان تعليم المسلمين ، وإلا فإنها كانت غاية فى الكرم والعطاء .

فإذا كان ذلك هو المعنى الذى ترمى إليه هذه الاستعارة فإنه - كما يبدو لى - وأرجو ألا أكون مخطئا - كان يتحقق لو عبر بالظلف على سبيل الحقيقة

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٥ /٢٣٤ -٢٣٥ الطبعة الأولى ١٩٨٦م دار الريان - للتراث - القاهرة .

(٢) نقلا عن تفسير القرطبى /٧٢٤٢ .

وقيل - مثلا - ولو ظلف شاة بدلا من (ولو فرسن شاة) وفاء بحق المبالغة المتوخاه ؛ لأن ظلف الشاة كما هو مشاهد أصغر بكثير من فرسن البعير ، أو خفه ، ولا يكاد يبلغ معشار حجمه .

وهنا نصل إلى الإجابة عن التساؤل السابق ما وجه إفادة تلك الاستعارة ؟ فأقول إن صاحب لسان العرب قد أورد فى معنى الفرسن قولين كما قدمت .

أحدهما : أنه الخف كله .

والثانى : أنه طرف ذلك الخف ، وهو عظم ضئيل لا يحفل به ، ولا يعبأ بقيمته .

ويبدو لى ، وهو اجتهاد منى يمكن أن أكون مخطئا فيه ، أو مصيبا أن الذى يتلائم مع المبالغة التى سيقت من أجلها هذه الاستعارة أن يحمل معنى الفرسن على طرف الخف وحده كما قال ابن سيده ، وقد يؤكد هذا الفهم ، ويدعمه أن العرب كما جاء فى لسان العرب تذكر الخف ، وتؤنث الفرسن[1] فهما شيئان ، لا شيء واحد ، وبذلك تكون الاستعارة مفيدة ، ومتناسقة مع المبالغة المنوطه بها ، والمبتغاه منها ؛ لأن الفرسن حينئذ يكون أصغر من ظلف الشاة ، وأقل قيمة وقدرا منه .

ولا ضير فى أن تبنى استعارة على قول بعض اللغويين دون إجماع منهم ، وقد ظهرت لى هذه الحقيقة خلال قراءتى لكتاب لسان العرب ، وأقرب مثال يذكر فى هذا المقام أن الشيخ عبد القاهر نفسه جعل (الطلا) مستعارا من ولد الظبى ، لابن الإنسان[2] فى قول الأعرابى (كيف الطلا وأمه ؟) مع أن بعض اللغويين قد صرح بأن (الطلا) هو الصغير من كل شيء[3] .

---

(١) سبق إيراد كلامه فى مطلع الكلام حول هذه الاستعارة .

(٢) ينظر أسرار البلاغة /٢٧ -٢٨ .

(٣) ينظر لسان العرب ٤ /٢٧٠٠ (طلى) .

وقد يستعار عضو من الإنسان لإنسان آخر ، أو بعبارة أدق من المرأة للرجل ، فتستعار عجيزة المرأة ، أو ردفها لعجز الرجل ، ومؤخره جاء فى لسان العرب : « وعجيرة المرأة عجزها ، ولا يقال للرجل إلا على التشبيه ، والعجز لهما جميعا . . . وعجز الرجل مؤخره ، وجمعه أعجاز ، ويصلح للرجل والمرأة ، وأما العجيزة فعجيزه المرأة خاصة وفى حديث البراء رضى الله عنه أنه رفع عجيزته فى السجود[١] قال ابن الأثير العجيزة العجز ، وهى للمرأة خاصة فاستعارها للرجل »[٢] .

فالعجيزة أصل فى المرأة ، خاصة بها ، وإذا استعملت فى الرجل ، كانت استعارة مفيدة ، لأنها قائمة على التشبيه ، وإعطاء عجز الرجل شبها من عجيزة المرأة ، وضخامتها ، وقد أشار إلى ذلك لسان العرب فى الكلام المتقدم ، فقال « ولا يقال للرجل إلا على التشبيه » ويؤخذ من ثنايا هذا الكلام أن العرب تمتدح المرأة بكبر عجيزتها ؟ ولذلك قال قائلهم :

أبت الروادف والثدى لقمصها مسّ البطون وأن تمس ظهورا
وإذا الرياح مع العشى تناوحت نبهن حاسدة وهجن غيورا[٣]

فمدحها بكبر عجيزتها ، وضمور خصرها على حد قول الآخر :

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة تَمّت فليس فى خلقها أوَدُ[٤]

فهى امرأة كاملة الخلقة ، ضامرة البطن والخصر ، إذا نظر إليها وهى مقبلة رؤى جسمها ممشوق القد ، مفتول القوام ، وإذا نظر إليها وهى مدبرة بدت

---

(١) الحديث فى كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير ٣ /١٨٦ .

(٢) لسان العرب ٣ /٢٨١٨ (عجز) .

(٣) ينظر مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف ، للشيخ محمد عليان المرزوقى صـ٥١ مطبوع فى آخر الكشاف الجزء الرابع . دار المعرفة - بيروت .

(٤) الأود : العوج . ينظر لسان العرب ١ /١٦٨ (أود) .

ممتلئة الجسم ، عظيمة الردف .

وأما الرجل ، فيمد حونه بخفة الجسم ، ولذلك كانت استعارة العجيزة له فيها ضرب من النقص والعيب ، ونوع من عدم الكمال ، ولذلك قال طرفه بن العبد مفتخرا بنفسه :

أنا الرجل الضرب الذى تعرفونه خشاش من كرأس الحية المتوقد[١]

يقول إن جسمه خفيف اللحم « والعرب تتمدح بخفة اللحم ؛ لأن كثرته داعية إلى الكسل والثقل ، وهما يمنعان من الإسراع فى دفع الملمات ، وكشف المهمات »[٢] .

وقد تستعار أجزاء ، أو شبهها من النخلة ، لما يشبهها من بعض الأشجار ، فاستعيرت الكباسة من النخلة لكباسة شجرة الفوفل جاء فى لسان العرب : « والكباسة بالكسر العذق التام بشماريخه ، وبسره ، وهو من التمر بمنزلة العنقود من العنب ، واستعار أبو حنيفة الكبائس لشجرة الفوفل ، فقال تحمل كبائس فيها الفوفل مثل التمر . غيره والكبيس ضرب من التمر ، وفى الحديث أن رجلا جاء بكبائس من هذه النخل »[٣] .

فاستعارة كباسة النخلة لما يشبهها من شجر الفوفل يشعر أن كباسة النخلة وبسرها أو رطبها أفضل فى النوع والقيمة الغذائية من مثيلتها فى شجرة الفوفل ، وقد بحثت عن معلومات حول هذا الفوفل الذى لا نعرف اسمه ولا رسمه فى بلادنا - فى مبلغ علمى - فوجدت فى لسان العرب أن أبا حنيفة قال « الفوفل ثمر نخلة ، وهو صلب كأنه عود خشب ، وقال مرة شجرة

---

(١) معلقة طرفه فى شرح المعلقات السبع ، للزوزنى /٧٨ .

(٢) المرجع نفسه والموضع .

(٣) لسان العرب ٥ /٣٨١٢ (كبس) .

الفوفل نخلة مثل نخلة النارجيل[١] تحمل كبائس فيها الفوفل مثل التمر »[٢] .

ويبدو من كلام لسان العرب حول هذه الاستعارة أن ثمر شجرة الفوفل أقل قيمة وقدرا من ثمار النخيل المعروفة ، وإذا كان الأمر كذلك ، فإنها تكون استعارة مفيدة ؛ لأن فيها إلحاق ناقص بكامل ، وإن بدت فى أول الأمر أنها نقل لفظ مكان لفظ .

* * *

(١) النارجيل : جوز الهند واحدته نارجيلة ، قال أبو حنيفة أخبرنى الخبير أن شجرته مثل النخلة سواء إلا أنها لا تكون غلباء تميد بمرتقيها حتى تدنيه من الأرض لينا قال ويكون فى القنو الكريم منه ثلاثون نارجلية . لسان العرب ٦ /٤٣٩٢ (نرجل) .

(٢) لسان العرب ٥ /٣٤٨٧ (فوفل) .

استعارة أسماء بعض الأعمال مكان بعض

رأينا - فيما مضى من هذا البحث - أن من غناء اللغة العربية ، ورحابة تعبيراتها واتساع دائرتها تسمية العضو الواحد بأسماء متعددة على حسب أجناس الحيوانات ، فالعضو الذى تطأ به الحيوانات الأرض يسمى فى البعير خفا ، وفى البقر والغنم والظباء ظلفا ، وغير ذلك كما سلف ذكره ، وأضيف هنا أن من مظاهر تلك الرحابة ، والسعة تسمية العمل الواحد بأسماء مختلفة تبعا لاختلاف أنواع المخلوقات ، فاتصال الذكر بالأنثى إن كان فى الإنسان له أسماء معروفه منها النكاح[١] ، أو كنايات معلومة منها كما جاء فى القرآن الكريم المسّ كما فى قوله تعالى : ﴿ **لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن . . .** ﴾[٢] ، أو الملامسة كما فى قوله تعالى : ﴿ **أو لامستم النساء** ﴾[٣] ، وإن كان فى الطيور ، أو الغنم سمى رصعا[٤] ، واتصال الحمار بالأتان يسمى (بوكا)[٥] وغير ذلك .

فإذا نقل اسم هذا العمل ، أو الفعل من نوعه المعروف به إلى نوع آخر ، فإن ذلك النقل يكون استعارة لفظية غير مفيدة ، إن وضع لفظ مكان آخر فقط ، أو استعارة مفيدة إن روعى فيها شبه بين المستعار منه ، والمستعار له ، قياسا على ما أسلفت ذكره من استعارات ، - فمثلا - قد يستعار رصع الطائر أنثاه للإنسان جاء فى لسان العرب :

---

(١) ينظر لسان العرب ٦ /٤٥٣٧ (نكح) .
(٢) البقرة /٢٣٦ .
(٣) النساء /٤٣ والمائدة /٦ .
(٤) ينظر لسان العرب ٤ /١٦٥٦ (رصع) .
(٥) نفسه ١ /٣٨٩ (بوك) .

« ورصع الطائر الأنثى يرصعها رصعا سفدها ، وكذلك الكبش ، واستعارته الخنساء فى الإنسان ، فقالت حين أراد أخوها معاوية أن يزوجها « دريد بن الصمة » :

معـاذ الله يرصعنـى حبركـى قصير الشبر من جشم بن بكر

وقد تراصعت الطير والغنم والعصافير[١] » .

والحبركى كما فى لسان العرب الطويل الظهر ، القصير الرجلين ، أو الضعيف الرجلين الذى يكاد يكون مقعدا[٢]

ويبدو أن استعارة « الرصع » للإنسان فى بيت الخنساء من قبيل الاستعارة المفيدة ؛ لأنها تذم « دريدا » ولا ترضاه بعلاً لها ؛ لأنه شيخ كبير ، ضعيف البنية ، سقيم الجسم ، تكاد رجلاه لا تستطيعان حمله ، فما أحراه بأن يلحق بالطير والعصافير فى ضعفهما ، وخراعة جسمهما .

وكان « دريد » وهو فارس « جشم » قد فتن بها ، وأراد خطبتها ، فتقدم لأبيها ، فرحب به ، وذهب أبوها إليها ليأخذ رأيها ، فرفضت الزواج منه ، وأقامت رأيها على أنها شابة فى مقتبل العمر ، وهو شيخ أضنته السنون ، وقد غضب « دريد » لرفضها وهجاها بشعر منه :

وقاك الله يا ابنـة آل عمـرو مـن الفتيـان أمثالى ونفسـى

فلا تلدى ولا ينكحك مثلى إذا ما ليلـة طرقت بنـحس[٣]

ومن هذا النوع أيضا استعارة اسم اتصال الحمار بأنثاه ، وبوكه إياها لهذا الفعل من الإنسان جاء فى لسان العرب :

---

(١) نفسه ٣ /١٦٥٦ (رصع) .

(٢) نفسه ٢ /٧٥٢ (حبرك) .

(٣) ينظر الخنساء شاعرة بنى سليم ، للدكتور محمد جابر عبد العال /٥٩ وما بعدها ، سلسلة أعلام العرب إصدار وزارة الثقافة والإرشاد القومى ١٩٦٣م .

« والبوك سفاد الحمار ، وباك الحمار الأتان يبوكها بوكا ، كامها ، ونزا عليها ، وقد يستعمل فى المرأة قال ابن برى وقد يستعار للآدمى ، وأنشد أبو عمر :

فباكهـــا موثـــق النيـــاط ليس كبوك بعلها الواطـواط[1]

وفى الحديث[2] أنه رفع لعمر بن عبد العزيز أن رجلا قال لآخر ، وذكر امرأة أجنبية إنك تبوكها ، فجلده عمر ، وجعله قذفا ، وأصل البوك فى ضراب البهائم ، وخاصة الحمير[3] . . . » .

ويبدو أن تلك الاستعارة ليست مجرد وضع لفظ مكان لفظ حتى تكون استعارة لفظية غير مفيدة ، وإنما هى مفيدة ، قوامها التشبيه ، وكلمات البيت ناطقة بذلك ، فالرجل الذى استعير له الفعل (فباكها) موثق النياط ، ذو قلب شديد ، ولعله - والله علم - كان بعلا ثانيا تزوجها بعد الأول ، الذى كان ضعيفا ، وطواطا ، خائر الجسم ، جبانا عديدا .

وهنا يبرز تساؤل مؤداه إذا كان الفعل (فباكها فى صدر الشطر الأول من البيت مستعارا كما ذكر ، فإن (كبوك) استعمل مع الزوج الأول الذى وصف بأنه وطواط ، فكيف يطلق البول على الفعل الضعيف أيضا ؟ والخطب فى ذلك هين ، فإن (كبوك) فى الشطر الثانى يمكن أن يكون من قبيل المشاكلة للفعل (فباكها) فى الشطر الأول ، وتبقى تلك الاستعارة مفيدة ، لا غبار عليها .

---

(١) موثق : محكم النياط : عرق يتعلق به القلب الوطواط : الضعيف الجبان تشبيها بطائر الخفاش ينظر لسان العرب (وثق) (نيط) (وطط) .

(٢) يبدو أنه يقصد من الحديث معناه اللغوى .

(٣) لسان العرب ١ /٣٨٩ (بوك) .

وقد لحظت أن لسان العرب بين « الرصع » و« البوك » فى الاستعارتين السابقتين بالسفاد ، فقال فى الأول « ورصع الطائر أنثاه يرصعها رصعا سفدها » وقال فى الثانية « البوك سفاد الحمار » يضاف إلى ذلك أن البلاغيين يمثلون لوجه الشبه المتعدد العقلى بحدة النظر ، وكمال الحذر ، وإخفاء السفاد فى تشبيه طائر بالغراب[١] أفيعنى هذا أنه يستعمل السفاد فى قرب الذكر من الأنثى فى جميع المخلوقات أو أنه خاص ببعضها دون بعض ؟

وللإجابة عن هذا التساؤل ، قد تتبعت هذه المادة فى لسان العرب فوجدته يقول فى مطلعها : « السفاد نزو الذكر على الأنثى[٢] » .

ثم نقل عن بعض اللغويين أنه يستعمل فى بعض أنواع المخلوقات دون بعض فقال « . . . الأصمعى يقال للسباع كلها سفد ، وسفد أنثاه ، وللتيس ، والثور ، والبعير ، والطير مثله[٣] » .

فعلى ما قاله الأصمعى يكون السفاد خاصا ببعض المخلوقات دون بعض ، وقد وجدت الزمخشرى يذكر أنه يستعمل فى الطير دون التعرض للأنواع الأخرى ، ويظهر من صنيعهما أن السفاد يستعمل على وجه الحقيقة فى بعض المخلوقات دون بعض ، ومفهوم هذا أنه إذا استعمل فى غير الأنواع المنصوص عليها يكون استعارة ، لكن ابن منظور والزمخشرى لم يذكرا أن السفاد استعير لشئ من الأحياء ، لكن صاحب لسان العرب ذكر أن بعض الشعراء استعار « السفاد » للزند فقال :

« واستعاره - أى السفاد - أمية بن أبى الصلت للزند فقال :

---

(١) ينظر المنهاج الواضح للأستاذ حامد عونى /٤٧ ، وبغية الإيضاح ٣ /٣٥ .

(٢) لسان العرب ٣ /٢٠٢٣ (سفد) .

(٣) المصدر نفسه والموضع .

والأرض صَيَّرها الإلهُ طروقةً للماء حتى كل زند مُسفِدُ[١]

فالاستعارة فى البيت بين حيوان ، وخشب ، أو نحوه ، والمستعار منه قرب ذكران بعض الحيوانات لإناثها ، والمستعار له دخول خشبة الزند العليا فى السفلى ، لأن « الزند ، والزندة خشبتان يستقدح بهما ، فالسفلى زندة ، والأعلى زند . . . والزندة العود الأسفل الذى فيه الفرضة[٢] وهى الأنثى[٣] » .

وهذه الاستعارة تبدو مفيدة ، لملاحظة التشبيه فيها ، وفيها جدة وطرافة ، لأنها أحيت الجماد ، وحركت الساكن ، فهى خاصية غريبة ، لا يتأتى مثلها إلا للشعراء الأفذاذ الذين أوتوا حظا وافرا من فن القول ، وصياغة البيان ؛ لأن الشاعر استطاع بحذق ومهارة أن يجمع بين المبتاعدين ، ويقرن بين العندين ، فالمستعار منه لا يخطر بالبال عند ذكر المستعار له ، فأحدهما من وادى الحيوانات ، والآخر من وادى الخشب ، وشتان ما بينهما ، وما أشبه هذه الاستعارة بتلك التى جاءت فى قول الشاعر :

وإذا احتبى قربوسه بعنانه علك الشكيم إلى انصراف الزائر[٤]

ومن قبيل استعارة « الرصع » و« البوك » من الحيوان أو الطير للإنسان استعارة العسب وهو ضراب الفحل للإنسان جاء فى لسان العرب العسب طرق الفحل أى ضرابه يقال عسب الفحل الناقة يعسبها ويقال إنه لشديد

---

(١) لسان العرب ٣ /٢٠٢٣ (سفد) .

(٢) الفرضة : الفرجة أو الثلمة فى الشىء ، ولهذا يسمى الأعلى (أبا) والأسفل (أما) يقول ذو الرمة :

وسقط كعين الديك عاورت صاحبى
أباها وهيأنا لموقعها وكرا

(٣) لسان العرب ٢ /١٨٧١ (زند) .

(٤) ينظر بغية الإيضاح ٣ /١٢٩ .

العسب وقد يستعار للناس قال زهير فى عبد له يدعى يسارا أسره قوم فهجاهم :

ولـــولا عسبــــه لـــرددتموه   وشر منيحـــه أيـــر معـــار[1]

قوله (عسب الفحل الناقة) يدل على أن المقصود من الفحل ذكر الإبل ، وقد استعار (زهير) عسبه للإنسان - أى عبده - يقل لهؤلاء الذين أسروا عبده لولا قوة عسبه ، وشدة ضرابه ، لأطلقم سراحه ، وفككتم أسره ، ويقصد رميهم ، أو رمى نسائهم به ، وهو هجاء مقذع ، ما كان ينبغى أن يتورط فى مثله (زهير) الشاعر المتزن الرزين الذى مدحه بعد ذلك عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وأثنى على شعره ، ولكنها الجاهلية تأبى إلا أن تظهر فى بعض شعره مثل قوله :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه   يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم[2]

فإنه يدعو إلى الظلم ابتداء حتى يخشى الناس هذا الظالم فلا يظلمونه ، وهو منطق عدوانى بعيض جدير بالمقت والازدراء .

وعلى كل فإن استعارة « العسب » للإنسان استعارة مفيدة ؛ لأنها عقدت شبها بين المستعار منه ، وهو فحل الإبل ، والمستعار له ، وهو فرد من الناس ، فكأنها أعطت هذا الإنسان قوة فحل الإبل ، وشدته .

* * *

(١) لسان العرب ٤ /٢٩٣٥ (عسب) .

(٢) ينظر معلقة زهير فى شرح المعلقات السبع ، للزوزنى /١٠٤ والرواية المشهورة للبيت (يظلم) بدل (يهدم) .

استعارة اسماء بعض الأصوات مكان بعض

طوفنا - فيما مضى - حول الاستعارة بين الذوات ، وبين الأعضاء ، وبين الأعمال ، ونتطرق هنا - بعون من الله - إلى استعارة بعض الأصوات مكان بعض ، فقد عثرت فى لسان العرب على عدد من تلك الأصوات استعير بعضها مكان بعض ، فقد يستعار صوت الحيوان للإنسان ، أو صوت الحيوان للحيوان ، أو صوت الإنسان للإنسان ، وغير ذلك ، فإذا أريد تقبيح صوت الإنسان ، وتشويهه يستعار له صوت الحمار أو البغل ، ونحو ذلك جاء فى لسان العرب :

« الشحيج والشحاج بالضم صوت البغل ، وبعض أصوات الحمار ، وقال ابن سيده هو صوت البغل ، والحمار ، والغراب إذا أَسَنّ ، وربما استعير للإنسان . . . وفى حديث ابن عمر - رضى الله عنهما - أنه دخل المسجد فرأى قاصا صياحا فقال اخفض من صوتك ألم تعلم أن الله يبغض كل شحاج[1] الشحاج رفع الصوت وهو بالبغل والحمار أخص كأنه تعريض بقوله تعالى ﴿ **إن أنكر الأصوات لصوت الحمير**[2] ﴾ وهو الشحاج والشحيج والنهاق ، والنهيق[3] » .

فاستعارة الشحاج وهو صوت البغل ، أو البغل ، والحمار ، والغراب كما ذكر للإنسان ، وهى من الأصوات التى تكره ، وتستقبح استعارة تعمد الذم ، وإلحاق القدح ، والنقص بصوت الإنسان الذى يستعار له هذه

---

(١) الحديث فى كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير /٤٤٨٢ .

(٢) لقمان /١٩ .

(٣) لسان العرب ٤ /٢٢٠٤ -٢٢٠٥ (شحج) .

الأصوات المنكرة المذممة التى تعافها الأذن وتمجها النفس فهى استعارة مفيدة وإن كان فيها استعارة صوت معين لصوت آخر ، لأنه قد لوحظ فيها شبه بين طرفى الاستعارة وكفى صوت الحمار ذما قول لقمان لابنه كما حكى القرآن الكريم ﴿ **إن أنكر الأصوات لصوت الحمير** ﴾ وأنكر الأصوات « أوحشها من قولك شيء نكر إذا أنكرته النفوس واستوحشت منه ونفرت والحمار مثل فى الذم البليغ والشتيمة وكذلك نهاقه[1] » .

وقد يستعار صوت حيوان لحيوان آخر كاستعارة البغام وهو صوت الظبى للناقة ، جاء فى لسان العرب :

« والبلدة بلدة النحر ، وهى ثغرة النحر وما حولها وقيل هو الصدر من الخف والحافر قال ذو الرمة :

أنيخت فألقت بلدة فوق بلدة قليل بها الأصوات إلا بغامها[2]

يقول بركت الناقة وألقت صدرَها على الأرض وأراد بالبلدة الأولى ما يقع على الأرض من صدرها وبالثانية الفلاة التى أناخ ناقته فيها . . . والبغام صوت الناقة ، وأصله للظبى فاستعاره للناقة[3] »

فالبلدة فى بيت ذى الرمة لها معنيان الفلاة ، وما يقع على الأرض من صدر الناقة ، والبغام وهو فى الأصل صوت الظبى مستعار فى البيت لصوت الناقة ، ولا شك أن صوت الظبى رقيق رخيم ، وصوت الناقة غليظ ، فيكون الشاعر قد استعار الصوت الجميل لما هو دونه ، فهى استعارة مفيدة ؛ لأن فيها إلحاق ناقص بكامل ، فالتشبيه مراعى فيها ، ولعل الشاعر لم يسمع فى

---

(١) الكشاف ٣ /٢١٤ .

(٢) بغام الظبية صوتها ، وبغمت بغاما وبغوما صاحت إلى ولدها بأرخم ما يكون من صوتها . ينظر لسان العرب ١ /٣٢٠ (بغم) .

(٣) لسان العرب ١ /٣٤١ (بلد) .

الصحراء إلا صوت الناقة فاستأنس به ، وركن إليه فاستعذبه ، وطرب له ، فجعله بغاما .

وفى البيت كما لا يخفى جناس تام بين بلدة ، وبلدة ، فقد اتحد لفظهما ، واختلف معناهما ، وهو محسن بديعى يكسب الكلام جمالا ، وبهاء ، ويضفى عليه حلاوة ، وطلاوة كقوله تعالى : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة**[1] ﴾ ومن هذا النوع استعارة نعاب الغراب لصوت الديك ، وصوت المؤذن ، وصوت الرجل فى الفتن جاء فى لسان العرب :

نعب الغراب وغيره . . . صاح ، وصوّت ، وهو صوته ، وقيل مدّ عنقه ، وحرك رأسه فى صياحه . . . وربما قالوا نعب الديك على الاستعارة قال الشاعر :

وقهوة صهباء باكرتها بجهمة والديك لم ينعب[2]

ونعب المؤذن كذلك وأنعب الرجل إذا نعرفى الفتن[3] . . . »

فالنعاب صوت الغراب ، ويقال نعيبا ، ونعابا أيضا[4] وهو صوت مكروه مستقبح ، وذكر صاحب لسان العرب فى كلامه الذى سلف ذكره أنه ربما يستعار للديك ، وصوت الديك ليس بغيضا ، ولا مكروها ، ولا ثقيلا على النفس ، بل هو صوت مألوف قريب من النفس ، ولا أدل على ذلك من أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقوم إلى صلاة الفجر إذا سمع صوته ، فقد سئلت السيدة عائشة - رضى الله عنها - عن أى العمل

---

(١) الروم /٥٥ .

(٢) الْجَهْمَةُ : أول مآخير الليل قريب من وقت السحر . ينظر لسان العرب ١ /٧٤٠ (جهم) .

(٣) لسان العرب ٦ /٤٤٦٩ -٤٤٧٠ (نعب) .

(٤) نفس المصدر والموضع .

كان أحب إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - ؟ فقالت : الدائم ثم سئلت متى كان يقوم ؟ قالت يقوم إذا سمع الصارخ[١] .

والصارخ هو الديك ، وإنما كان يصرخ فى حدود الثلث الأخير ووقت السحر[٢] فكيف يكون هذا الصوت العذب الجميل الذى كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقوم إلى الصلاة فى جنح الليل إذا سمعه ؟ كيف يكون مكروها كصوت الغراب ؟ حتى يستعار له نعيبه ، ويظهر أن صوته لا يكون مذموما إلا إذا كان سببا فى فراق المتحابين والسمار ، وقد لمس صاحب لسان العرب هذا المعنى فى موضع آخر فقال :

« العرب تقول أثقل من الزواق ، وهى الديكة تزقو وقت السحر فتفرق بين المتحابين ، لأنهم كانوا يسمرون ، فإذا صاحت الديكة ، تفرقوا ، وفى حديث هشام أنت أثقل من الزوافى هى الديكة ، واحدها زاق يريد أنها إذا زقت سحرا تفرق السمار والأحباب[٣] » .

فصوت الديك عندما يكون ثقيلا على قلب من يسمعه يصك سمعه ، وينغص عليه أمره ، فالسمار ، والمتحابون يودون أن يطول الليل ، ولا يسفر الصبح ، فهو عندهم فى منزلة نعيب الغراب ، وفحيح الأفاعى والحيات ، والبيت الذى ساقه لسان العرب شاهدا على استعارة النعاب للديك دليل على صدق ذلك الاستنتاج ، فقائله سكير يعاقر الخمر سحرا ، ولا يود أن يصحو من سكره ، أو يفيق من نشوته ، ولا يطيق سماع صوت الديك الذى يشعره بفلق الصبح ، وضيائه ، ويقطع عليه لذته وهناءه .

---

(١) ينظر عمدة القارى شرح صحيح البخارى ، للإمام العينى ٦ /١٨٩ ط أولى ١٩٧٢م مطبعة مصطفى الحلبى وأولاده .

(٢) المرجع نفسه والموضع .

(٣) لسان العرب ٣ /١٨٤٦ (زقا) .

ومن الغريب حقا أن يقول لسان العرب عقب كلامه فى استعارة النعاب للديك : « ونعب المؤذن كذلك » ولعله يريد أن النعاب مستعار لصوت المؤذن ، كما كان مستعارا لصوت الديك وهذا هو المتبادر من عطفه عليه ، فإن صح هذا ، فإننا نتساءل كيف يكون الأذان ، وهو شعار الإسلام للإعلان بدخول وقت الصلاة يشبه صوت الغراب ؟

يبدو - والله أعلم - أن هذه الاستعارة إنما هى من منظور العصاة الذين يتسترون بظلام الليل ، ولا يريدون للصبح أن ينبلج ضوءه ، وتهزم جيوشه فلول الظلام ، فهى استعارة مفيدة .

بقى من الاستعارات التى أشار إليها صاحب لسان العرب فى كلامه الآنف الذكر قوله « وأنعب الرجل إذا نعر فى الفتن » فقد استعير نعاب الغراب لصياح الرجل فى الفتن ؛ لأنه صوت شرير ، مسعر حرب ، يرفع عقيرته فى إثارة الشرور ، والتداعى إلى العصبيات الذميمة ، فلا عجب أن يكون صوته كصوت الغراب ، ولذلك تعتبر هذه الاستعارة مفيدة ؛ لملاحظة شبه بين المستعار منه ، والمستعار له .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

المصادر والمراجع

١ - أسرار البلاغة تحقيق الشيخ محمد رشيد رضا الطبعة السادسة ١٩٥٩م مكتبة القاهرة

٢ - أسرار البلاغة تحقيق هـ ريتر طبعة استانبول - وزارة المعارف ١٩٥٤م

٣ - الأطول - العصام طبعة الآستانة ١٢٨٤هـ

٤ - الإفصاح عما تضمنه الإيضاح من مباحث البيان - الدكتور / أحمد محمد الحجار - دار الاتحاد العربى للطباعة ١٩٧٣م

٥ - بغية الإيضاح - الشيخ عبد المتعال الصعيدى - المطبعة النموذجية

٦ - البيان بين عبد القاهر والسكاكى الدكتور / على البدرى - الطبعة الأولى ١٩٧٧م مطبعة السعادة - القاهرة

٧ - التصوير البيانى للدكتور محمد أبو موسى - الطبعة الثانية ١٩٨٠م مكتبة وهبة - القاهرة .

٨ - تفسير القرطبى طالشعب .

٩ - حاشية الإنبابى على الرسالة البيانية - للصبان - المطبعة الأميرية الطبعة الأولى ١٣١٥هـ

١٠ - الخصائص ، لابن جنى - تحقيق محمد على النجار دار الهدى للطباعة والنشر - بيروت - لبنان .

١١ - الخنساء - للدكتور محمد جابر عبد العال - سلسلة أعلام العرب - إصدار وزارة الثقافة والإرشاد القومى ١٩٦٣م

١٢ - ديوان أحمد شوقى .

١٣ - ديوان أوس بن حجر - تحقيق وشرح الدكتور محمد يوسف نجم - الطبعة الثالثة - دار صادر - بيروت
١٤ - ديوان الحطيئة - دار صادر - بيروت ١٩٨١م
١٥ - شرح المعلقات السبع - الزوزنى - المكتبة التجارية الكبرى ١٩٦١م .
١٦ - الصناعتين - أبو هلال العسكرى - تحقيق الدكتور مفيد قميحة - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٨١م
١٧ - العمدة ، لابن رشيق - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - الطبعة الخامسة - دار الجيل - بيروت .
١٨ - عمدة القارى - شرح صحيح البخارى - الإمام العينى الطبعة الأولى ١٩٧٢م مطبعة مصطفى الحلبى وأولاده .
١٩ - فتح البارى - بشرح صحيح البخارى - لابن حجر العسقلانى - الطبعة الأولى - دار الريان للتراث - القاهرة ١٩٨٦م
٢٠ - الفخر الرازى والبلاغة العربية - رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية اللغة العربية بالقاهرة - للدكتور محمد جلال الذهبى .
٢١ - الكشاف - دار المعرفة - بيروت .
٢٢ - لسان العرب - طبعة دار المعارف - القاهرة .
٢٣ - مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف - الشيخ محمد عليان المرزوقى - نهاية الكشاف آخر الجزء الرابع - دار المعرفة بيروت .
٢٤ - المطول - سعد الدين التفتازانى - مطبعة أحمد كمال ١٣٣٠هـ
٢٥ - المفتاح - السكاكى - مطبعة مصطفى البابى الحلبى ١٩٣٧م
٢٦ - المنهاج الواضح - الأستاذ حامد عونى - الطبعة الثالثة مطبعة مخيمر ١٩٦١م .
٢٧ - الموازنة - الآمدى - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ١٩٤٤م

٢٨ - نقد الشعر - قدامة بن جعفر تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى - الطبعة الأولى ١٩٧٩م مكتبة الكليات الأزهرية .
٢٩ - نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز - الإمام فخر الدين الرازى مطبعة الآداب ١٣١٧هـ
٣٠ - النهاية فى غريب الحديث والأثر - ابن الأثير تحقيق طاهر أحمد الزاوى وآخر - المكتبة العلمية - بيروت .

* * *

الموضوع

١ – الاستعارة غير المفيدة عند قدامة بن جعفر .....
٢ – الاستعارة غير المفيدة عند الآمدى .....
٣ – الاستعارة غير المفيدة عند أبى هلال العسكرى .....
٤ – الاستعارة غير المفيدة عند الشيخ عبد القاهر الجرجانى .....
٥ – الاستعارة غير المفيدة عند الزمخشرى .....
٦ – الاستعارة غير المفيدة عند السكاكى .....
٧ – الاستعارة بين أسماء الذوات .....
٨ – استعارة أسماء الأعضاء .....
٩ – استعارة أسماء بعض الأعمال مكان بعض .....
١٠ – استعارة أسماء بعض الأصوات مكان بعض .....
١١ – المصادر والمراجع .....

* * *